الخلافة الاسلامية

القسم الثانى

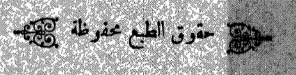
عصر الأمويين

الكتاب الثانى

بقلم

عبد الحميد بخيت

الأستاذ بكلية أصول الدين



الطبعة الأولى

لسنة ١٩٥١

المطبعة الفنية الحديثة

شارع محمد بك فريد بالناصرية



الخلافة الإسلامية

القسم الثانى

عصر الأمويين

الكتاب الثانى

ويشمل : النفوذ الأموى . تعدد الفرق . نظم الحكم مظهر الحضارة

بقلم

عبد الحميد بخيت

الأستاذ بكلية أصول الدين

الطبعة الأولى

لسنة ١٩٥١

المطبعة الفاروقية الحديثة

شارع محمد بك فريد بالناصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فقد أبنا فى الكتاب الأول ، جملة التاريخ السياسى لبنى أمية وأوجزنا القول فى أهم غزواتهم وفتوحهم ، كما أشرنا إلى طابع الحكم فى عهدهم ، وحالة الشعوب الإسلامية فى خلافتهم .

ولكن مما لاريب فيه ، ان الدولة الأموية قد ساهمت بمجهود يلفت النظر فى توسيع أملاك الخلافة ، وسن التشريعات المناسبة لتلك الظروف ، كما أن الذين غلبوا على أمرهم ؛ وديست حضارتهم حاولوا الانفصال عن الدولة فى شكل أحزاب وفرق دينية ـ وهو كل ما كانوا يستطيعون عمله ـ محاولين الثورة على بنى أمية ولكن عن طريق التكتل الدينى والاجتماعى ، والشعوبى (١)

كذلك جدت أحداث ، وتطورات ، دعت إلى ابتكار نظم فى السياسة والادارة ، والتشريع والقضاء ؛ وقيادة الجيوش وجباية الضرائب ، فأضاف الأمويون إلى نظم الحكم لدى الراشدين ، ضروباً جديدة لم يعرفها السلف من قبل ولم يمارسوها .

ومن ثم . فاننا سنعرض فى هذا الجزء من عصر الأمويين لتلك الأمور التى أسلفناها . متوخين للتفصيل فى تبيانها حتى يلم الذين يتعمقون فى دراسة تلك الدولة بشتى شئونها ، سياسيا ودينيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا محاولين جهدا لطاقة أن نضع أمام القارىء أهم المميزات لتلك الدولة العربية العريقة فى العروبة وشرف المحتد .

---

١ ـ الشعوبى نسبة إلى الشعوبية وهى حركات انفصالية نشأت لدى الموالى فى عهد الأمويين .

والتى قد ختمت بسقوطها رواية التعصب للجنس العربى من سكان الجزيرة العربية . وقام على انقاضها شعوب الفرس والترك والديلم ومن اليهم ، وذهبت الارستقراطية العربية التى أضفاها على العرب ، تقدمهم لحكم العالم بعد وفاة الرسول ثم ما كان من ابتلاع الدولة الاسلامية لدول الفرس والروم وتوغل المسلمين فى أواسط آسيا ، وغربى أوربا وبجاهل أفريقية - وهى كل العالم المعروف فى أيامهم لأن أمريكا واستراليا لم يكتشفا إلا حديثا وبعد أن أخذ النفوذ العربى الاسلامى يتقاص عن أجزاء العالم المعروف ».

فالدولة الأموية العربية رغم مآخذها فى الدين والسياسة . تعتبر من أقوى الدول الاسلامية ، وأكثرها انتاجا فى ميدان الفتح والسيادة ، وعزة العرب وعظمة الاسلام .

ولذلك . فاننا سنعمل ما وفقنا إلى العمل - على ابراز أهم النواحى الحية فى الحضارة الأموية ، وسياستها العربية ، وادارتها الاسلامية ، وسوف لا نغفل ما انحرفوا فيه عن الجيادة ، وجانبوا الحق والصواب . بل سنظهره ونبديه ، ونعلق عليه . ونحاول أن نصل الى وجه الحق فيما حفزهم لاتيانه ، ودعاهم الى ارتكابه .

ونسأل الله سبحانه أن يوفقنا ويهدينا سواء السبيل فانه نعم المولى ونعم النصير .

الفتوح فى عهد الأمويين

خلف مروان مؤسس الفرع المروانى فى الدولة الأموية ابنه عبد الملك المسمى « أبا الملوك » وفى عهد حكم عبد الملك وأولاده الأربعة الذين خلفوه وصلت دولة دمشق الى أوج قوتها وعظمتها وقد وصلت الامبراطورية الاسلامية فى عهد الوليد وهشام الى أقصى اتساعها فكانت تمتد من شواطىء المحيط الأطلسى وجبال البرانس الى نهر السند وأطراف الصين وهو اتساع قل أن نجد لها منافسا فيه فى العصور القديمة . ولم يقرب منها فى العصور الحديثة الا الامبراطوريتان البريطانية والروسية بالنسبة إلى عصرنا .

وفى هذا العصر الزاهر تم اخضاع بلاد ما وراء النهر وأعيد فتح شمال افريقيا واخضاعه وتم الاستيلاء على أكبر مملكة أوربية استولى عليها العرب ونقصد بها اسبانيا .

وقد شاهد هذا العصر ظاهرة جديدة وهى صبغ الادارة بالصبغة القوميه العربية وسك أول نقود عربية خالصة وتطور نظام البريد ورقيه واقامة منشئات كقبة الصخرة فى بيت المقدس وهى الحرم الثالث من مساجد الاسلام المقدسة .

ولقد أحاط بعبد الملك عند ولايته وفى السنوات العشر الأولى من خلافته أعداء كثيرون وكان مثله كمثل سلفه العظيم معاوية الذى كان يناظره والذى اضطر إلى مواجهة الاعداء فى جهات متعددة .

على انه عندما أدركه الموت فى آخر السنوات العشر الثانية التى حكمها أسلم إلى ولده الوليد امبراطورية ثابتة الاركان يشملها الهدوء . وتشمل لا كل العالم الاسلامى فحسب بل ما أضافه إليه من فتوح أيضا ولقد أثبت الوليد أنه خير خلف لأبيه العظيم .

لقد كان فتح الشام والعراق وفارس ومصر فى عهدى عمر وعثمان خاتمة المرحلة الأولى فى تاريخ الفتح الاسلامى ، ولقد بدأت الآن المرحلة الثانية فى عهدى عبد الملك والوليد .

على إن الأعمال الحربية الرائعة التى تمت فى هذين العهدين تدور حول اسمين هما اسم الحجاج بن يوسف الثقفى فى الشرق وموسى بن نصير فى الغرب . أما الحجاج فقد كان معلم صبية فى الطائف من مدن الحجاز : وقد وضع القلم ورفع السيف ليعاون عرش بنى أمية المهتز عندما عين حاكما على بلاد العرب بعد أن أخضع وهو فى سن الحادية والثلاثين عبد الله بن الزبير المطالب الخطير بعرش الخلافة والذى ظل تسع سنين يحمل لقب الخليفة ويتمتع بسلطانه ، وقد استطاع الحجاج فى مدى عامين اثنين أن يعيد الهدوء إلى الحجاز واليمن وحتى اليمامة فى بلاد العرب ، وفى ديسمبر سنة ٦٩٤ استدعاه عبد الملك ليقوم بعمل مماثل فى بلاد العراق المتمردة الساخطة التى كان أهلها أهل الشقاق والنفاق فى نظر الحجاج ، كما أبنا ذلك فى الكتاب الأول .

ولقد كان العلويون والخوارج يثيرون المتاعب باستمرار أمام الأمويين ، ووصل الحجاج على غير انتظار إلى مسجد الكوفة المشهور متنكرا ، وفى رفقته اثنا عشر راكبا فحسب ، فاعلى فى شىء من الخشونة منبر المسجد وأزال عمامته الكبيرة فكشف عن وجهه .

إن هذا وما يضاف اليه من خطبته النساويه من بين القصص المؤثرة التمثيلية الشائعة التى تتردد فى الأدب العربى ، ولقد أعلن سياسته فى عبارات صريحة جعلت أهل العراق يعرفون من مبدأ الأمر أنه لن تأخذه هوادة فى معاملة من يخرجون عن الطاعة ، ولقد بدأ خطابه ببيت لأحد الشعراء القدامى قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ثم واصل الخطيب كلامه قائلا « يا أهل الكوفة إنى أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى .. » ولقد أثبتت الظروف أنه لا تستعصى رأس مهما علت ولا عنق مهما اشتد كان بعيدا عن مناله وحتى أنس بن مالك المحدث المعمر والصحابى المحترم العظيم القدر من صحابة النبى ، فقد اتهم بالعطف على المعارضة فأجبر على أن يلبس حول عنقه شارة تحمل ختم الوالى ، ولقد قيل أن حاكم العراق هذا أزهق من الأرواح البشرية عددا لا يقل عن ١٢٠٠٠٠ نفس . ولقد وصفه مؤرخو العرب — ويجب أن نذكر ان معظمهم كان من الشيعة الذين كتبوا فى ظل الحكم العباسى — بأنه كان طاغية شديد الظمأ إلى الدماء ونيرون حقيقة وعلاوة على ظمئه إلى الدماء فان المؤرخين قد وصفوه بالشره وعدم التقى وكانت الكتابة فى هذا من المواضيع المحببة اليهم .

وسواء أكان الحجاج على حق أم لا ، فان وسائله الفعالة هذه نجحت فى إعادة النظام فى كل من البصرة والكوفة المتمردتين بل وفى جميع أنحاء مقاطعته الشاسعة التى كانت تشمل العراق وفارس ، ولقد استطاع قواده وعلى رأسهم المهلب بن أبى صفرة أن يستأصلوا (٦٩٨ و ٦٩٩) الأزارقة الذين كانوا من أشد الخوارج خطرا على الوحدة الاسلامية ، وكان الخوارج بزعامة قطرى بن الفجاءة قد قبضوا على أزمة الأمور فى كرمان وفارس وغيرهما من المقاطعات الشرقية

— وقد انضوى تحت حكم الأمويين عمان الواقعة على الساحل المقابل للخليج الفارسى وكانت فى أيام الرسول خاضعة خضوعا اسميا لحكم المسلمين ، وأسس الحجاج له عاصمة جديدة على الضفة الغربية لدجلة تسمى «واسط» سميت كذلك لأنها تقع فى منتصف الطريق بين مفتاحى العراق أى البصرة والكوفة ومن هذه العاصمة الجديدة استطاعت حامية الحجاج الشامية أن تخضع كل هذه

المقاطعات ، وكانت ثقته العمياء بجنود الشام وإخلاصه العظيم لقضية الأمويين لا يقف عند حد .

والآن وقد أعاد ذلك العامل النشيط الهدوء إلى إقليمه وأحاط به من كل مكان فانه أصبح فى موقف يمكنه من أن يبعث بقواده ليخترقوا الشرق الأقصى ، وقد أرسل أحد هؤلاء القواد وهو عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث - كان من سلالة ملوك كندة القدماء . وحاكما إذ ذاك على سجستان ثم قاد بعد ذلك ثورة خطيرة ضد سلطان الحجاج - إلى رتبيل الحاكم التركى لكابول (فى بلاد الأفغان الحديثة) بين سنتى ٦٩٩ - ٧٠٠ ، وكان قد رفض أن يدفع الجزية التى اعتاد دفعها . ولقد نجحت حملة عبد الرحمن وكان قوامها جيشا فخما حسن العدة حتى أنه كان يلقب بجيش الطواويس نجاحا تاما ولكن ما أحرزه من نصر قد تضاءل أمام انتصارات قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الثقفى بن أخى الحجاج - الذى عين بتوصية من الحجاج فى سنة ٧٠٥ حاكما على خراسان واتخذ عاصمة له مرو . وقد ذكر البلاذرى والطبرى أنه كان تحت إمرته فى خراسان التى يحكمها كتائب من قبل الحجاج ٤٠٠٠٠ من الجند العرب البصريين و ٧٠٠٠ من أهل الكوفة و ٧٠٠٠ من أهل العوالى .

فتح بلاد ما وراء النهر : —

أما نهر جيحون الذى كان فى ذلك الوقت لا يزال يعتبر الحد التقليدى وان لم يكن التاريخى بين إيران وطوران أى بين الشعوب المتكلمة الفارسية والشعوب المتكلمة بالتركية فأنه عبر الآن فى أيام الوليد وثبتت أقدام المسلمين فيما وراءه ولقد نجح قتيبة (٧٠٥) بعد سلسلة من الحملات الموفقة فى استرداد تركستان السفلى وعاصمتها بلخ (اسمها بكتريا عند اليونان) وغزا (فى سنة ٧٠٦-٧٠٩ ،

بخـــارى فى بلاد الصغد (صغـديانا) والمنطقة المحيطة بها واخضع سمرقند (فى بلاد الصغد أيضا) وخوارزم (مدينـة خيـوه الحديثة) الى الغرب وفيما بين سنتى ٧١٣ - ١٥ قاد حملة إلى مقاطعات نهر سيحون وبخاصة إلى فرغانه فأقام بذلك الحكم الاسلامى اسميا فيما يعرف فى الوقت الحاضر باسم خانات آسيا الوسطى . وبذلك أصبح نهر سيحون لا جيحون هو الحد الطبيعى سياسيا وماديا بين الايرانيين والاتراك وكان عبوره يعتبر أول نضال مبـــاشر قام به الاسلام ضد الشعوب التركية والدين البوذى كذلك لأن بخـــارى وبلخ وسمرقند كانت تضم كثيرا من الاديرة البوذية وقد وجد قتيبة فى سمرقند وعددا من الأصنام كان عبادها يعتقدون أنها تنزل الدمار بكل من يجرؤ على انتهاك حرمتها ولم يتردد القائد المسلم فى أن يشعل النار فى تلك التماثيل بيده وهو اجراء أدى الى اعتناق عدد منهم دين الاسلام وقد اعتنق عدد كبير منهم الدين الجديد فى عهد الخليفة الصالح عمر الثانى (٧٠٧ - ٢٠) وذلك عندما أعفوا من دفع الجزية وكذلك دمرت بيوت النار فى بخارى، وبذلك أصبحت بخارى مع سمرقند وبقية مقاطعة خوارزم مركزا للثقافة العربيـة ومهدا للاسلام فى آسيا الوسطى يقابل مرو ونيســـابور فى خراسان ولقد روى الطبرى وغيره أن قتيبة فتح كشغر فى التركستان الصينية بل وأنه وصل بلاد الصين نفسها ولكن هذه الرواية سابقة لاوانها بلا شك لان ذلك تم فيما بعد على يد نصر بن سيار وخلفائه ونصر هذا هو الذى عينه الخليفة هشام (٧٢٤ - ٤٣) أول حاكم لبلادها وراء النهر وكان عليـه أن يعيد فيما بين سنتى (٧٣٨ - ٧٤٠) معظم المنطقة التى قيل أن قتيبة قد اكتسحها فيما مضى ولم يكن الوكلاء الذين أقامهم قتيبة فى المناطق المفتوحة إلا مشرفين حربيين وجباة ضرائب يعملون جنبا إلى جنب مع الحكام الوطنيين الذين يرجح أن الادارة المدنية ظلت فى أيديهم .

وفى سنة ٧٥١ وصل العرب الشاش (تاشقنـد) إلى الشمال الشرقى من سمرقنـد

وبذلك ركزوا تركيزا بينا نفوذ الاسلام فى أواسط آسيا لدرجة أن الصينيين فيما بعد لم يستطيعوا منازعتهم فيها .

بذلك انطوت ما وراء النهر فى آخر الامر تحت راية امبراطورية الخلفاء المتراسية وأصبح العالم الاسلامى متصلا اتصالا حيويا بعنصر من جنس جديد وثقافة جديدة بالنسبة اليه وإن كانت قديمة بالنسبة إلى أصحابها وتقصد به المغول وستعالج فيما بعد فى شىء من التطويل الدور الهام الذى لعبه أولئك الأبناء الجدد فى الاسلام .

الفتوح فى الهند :ـ

أما الطابور الآخر فى المسرح الشرقى للجبهة فانه بدأ يتحرك إلى الجنوب تحت قيادة محمد بن القاسم وقد استطاع ابن أخى الحجاج هذا وقد تقدم على رأس جيش كبير من بينه ٦٠٠٠ من أهل الشام ان يخضع مكران وأن يواصل تقدمه فى المنطقة المعروفة الآن باسم بلوخستان وفى سنة ٧١١ أخضع السند ونقصد بها الوادى الأسفل ودلتا نهر السند (سندو) وكان ثغر الديبل من بين المدائن التى استولى عليها وكان فيها تمثال ليوذا (اسمه بالعربية بد) وكان يبلغ ارتفاعه ٤٠ ذراعا وكذلك استولى على النيرون (ومكانها حيدرأباد) وقد وصلت الفتوح (٧٢٣) فى الشمال حتى مدينة ملتان فى جنوب البنجاب وكانت مزارا مقدسا للاله بوذا وقد وجد الغزاة فيها جمهورا كبيرا من الحجاج فأخذوهم أسرى وقد أدى هذا إلى الاحتلال الدائم للسند وجنوب البنجاب ولكن بقية الهند ظلت غير متأثرة حتى أواخر القرن العاشر عندما ابتدىء غزو جديد فى عهد محمود الغزنوى وبذلك صبغت مقاطعات الحدود الهندية الى الأبد بالصبغة الاسلامية وهنا تأصلت إلى الأبد جذور أول اتصال بين الاسلام

والبوذية الهندية كما تأصلت فى الشمال جذور العلاقات مع الاديان والثقافات التركية وكان الحجاج قد وعد بأن يعطى حكومة الصين لأى واحد من القائدين العظيمين محمد أو قتيبة يكون أول من يطأ قدمه أرض تلك البلاد ولكن واحدا منهما لم يستطع بتاتا أن يعبر الحدود وقد ظلت بلاد الصين الأصلية إذا أخرجنا منها التركستان بما فيها من مسلمين يتراوح عددهم فى أيامنا هذه بين خمسة وسبعة ملايين بعيده دائما عن محيط العالم الاسلامى أما السند الى الجنوب فانها شأن كشغروتا شقند فى الشمال قد أصبحت إذ ذاك وظلت الى الابد الحد الشرق الأقصى للخلافة .

حرب والبيزنطين

(وفى سنة ٧٠ (سنة ٦٨٩) دفع الأمويون اتاوة الى طاغية الروم وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الأعمال العظيمة تجرى فى الشرق لم تهمل فيه الجبهة البيزنطية بتاتا فلقد جدا عبد الملك فى الشطر الأول من حكمه وفى الوقت الذى كان ابن الزبير فيه يقاوم الخلافة حذر معاوية أو كان يدفع الجراجمة وهم الحكام المسيحيون فيتوغلون فى لبنان ولكن بعد ما انجلى الأفق السياسى الداخلى استؤنفت الحرب مع الروم ولقد هزم جستنيان الثانى فى سنة ٦٧٢ على مقربة من سباستبوليس الكليكية وحوالى سنة ٧٠٧ أخذت سنه الطوانه أهم معاقل كبادوكيا وقد ذكرنا من قبل ان مسلمه بعد استيلائه على سردبس وبرجاموس قام بحصار القسطنطينية المشهور بين أغسطس سنة ٧١٦ وسبتمبر سنة ٧١٧ وكان الجيش الاسلامى الذى عبر الدردنيل عند بيروس مزودا بآلات الحصار ولكن كان على الأسطول أن يلقى مراسيه على مقربة من أسوار المدينة فى بحر مرمرة ومضيق البسفور ذلك لأن القرن الذهبى كان مغلقا بالسلاسل .

وكانت هذه هي المرة الثانية التي حوصرت فيها العاصمة البيزنطية بجيش عربي وكانت هجمات البلقان من العوامل التي اضطرت العرب إلى الانسحاب بعد حصار استمر عاما كاملا ، أما أرمينيا التي كان قد فتحها لمعاوية حبيب بن مسلمة الفهري في سنة ٦٤٤ – ٦٥ فانها اغتنمت فرصة النزاع مع ابن الزبير وثارت ولكنها أخضعت الآن مرة ثانية .

الفتوح في شمال أفريقيا وجنوب غرب أوربا :

ولم تكن الفتوح التي تمت في الجبهة الغربية على يد موسى بن نصير وقواده أقل ازدهارا وروعة من الفتوح التي تمت في الشرق على يد الحجاج وقواده ، ولقد بدأت الغارات في الحال بعد إخضاع مصر غربا نحو أفريقيا ولكن إخضاع تلك المنطقة إخضاعا تاما لم يتم حتى تأسيس القيروان سنة على يد عقبة بن نافع عامل معاوية التي اتخذها قاعدة لأعماله الحربية التي قام بها ضد قبائل البربر . وتنسب الروايات إلى عقبة أنه تقدم حتى أوقفه أمواج المحيط الاطلنطيق ولقد استشهد عقبة على مقربة من بسكره في بلاد الجزائر الحديثة ولا يزال قبره مزارا قوميا إلى الآن ، وحتى ذلك الوقت كانت قبضة العرب على أفريقيا غير ثابتة – حتى أنه بعد موت عقبة اضطر خلفه إلى أن يغزو تلك المنطقة ولم يمنعه النفوذ البيزنطي ومقاومة البربر إلا في أيام حكومة حسن بن النعمان الغساني ، ولقد استطاع حسن بمساعدة أسطول إسلامي أن يطرد البيزنطيين من قرطاجنة وغيرها من مدن السواحل ، ثم أطلقت يده بعد ذلك في ميدان الحروب ضد البربر الذين كانت تقودهم كاهنة لها نفوذ غريب فوق أتباعها . ولقد هزمت البطلة في آخر الأمر

نتيجة لعمل من أعمال الخيانة ، وقتلت على مقربة من بئر لا يزال يحمل اسمها يسمى بئر الكاهنة .

وجاء بعد حسن الذى أعاد فتح افريقيا ونشر الهدوء فى ربوعها موسى بن نصير الشهير وفى عهده أصبحت حكومة المنطقة التى تدار فى القيروان مستقلة عن مصر يتلقاها الحاكم من الخليفة مباشرة فى دمشق . أما موسى الذى قيل أن أباه مع محمد بن اسحق كاتب سيرة النبى ، فقد كان أحد الأسرى المسيحيين الذين وقعوا فى قبضة خالد بن الوليد حينما كانوا يدرسون الأناجيل فى كنيسة عين القمر ، فقد مد حدود مقاطعته إلى طنجة ، وهذا جعل الاسلام على اتصال بعنصر آخر وهو البربر . وينتهى أولئك البربر إلى الفرع الحامى من السلالة البيضاء وربما كانوا فى عصور قبل التاريخ يكونون أرومة واحدة مع الساميين ، وفى عصر الفتح الاسلامى كان معظم البربر الذين يسكنون بقعة الأرض الضيقة الخصبة التى تتاخم البحر قد اعتنق المسيحية ، وفى هذه المنطقة علا صيت ترتيليان والقديس كيريان وأهم منهما القديس أوغسطين بين الآباء المسيحين الأول .

وفيما عدا ذلك فان السكان لم يتأثروا تأثرا عميقا بالحضارة الرومانية ذلك لأن الرومان والبيزنطيين كانوا فى الغالب يعيشون فى المدائن الساحلية . وكانوا دعاة حضارة لا تتفق بتاتا مع عقلية أولئك البدو وإنصاف البدو من سكان إفريقيا الشمالية ، ومن ناحية أخرى فان الاسلام كان يجتذب بصفة خاصة أولئك الشعوب الذين لا يزالون فى هذا الدور من الثقافة الذى كان فيه البربر ، وفوق هذا فان العرب الساميين الذين كانوا بصلة القربى إلى الفينيقيين الأول الذين استعمروا شمال إفريقيا وأقاموا فى قرطاجنة منافسا خطيرا لروما قد نجحوا فى تأسيس علاقات قوية مع أبناء عمهم الحاميين .

وهذا يفسر لنا معجزة الاسلام التي يبدو تفسيرها صعبا في قدرته على صبغ لغة تلك الجموع أنصاف البربرية بالعربية وتحويلهم إلى عقيدة الاسلام وكيف أنه استطاع أن يجند منهم جند أقوياء تسابقوا في مضمار الفتوح الأخرى العالية . وبذلك وجد دم الغزاة سجايا جـــديدة لقح بها . ووجد اللسان العربي حقلا شاسعا غزاه ، والاسلام الناهض موطنا جديدا استعان به في تسلق سلم الزعامة العالمية .

وبعد إخضاع ساحل إفريقيا حتى المحيط الأطلنطيقي أصبح الطريق أمام موسى مفتوحا لغزو الجزء الجنوبي الغربي من أوربا ، وفي سنة ٧١١ خطا طارق وهو من موالى البربر ونائب موسى الخطوة الجريئة إذ عبر البحر إلى أسبانيا في حملة عرضها السلب ثم تطورت هذه الغارة إلى فتح شبه جزيرة إيبريا (الأندلس)

وكانت هذه الحملة آخر حملات العرب العظيمة وأشدها إثارة للعواطف ، وقد أسفرت في آخر الأمر عن إضافة أكبر مقاطعة أوربية إلى العالم الاسلامي ، لم يضف العرب أكبر منها فيما بعد . وبعد أن استولى الجيش العربي والبربري على عدة مدائن في جنوب بلاد الغال أوقف تقدمهم في سنة ٧٣٣ بين مدينتي تور وبواتييه على يد شارل مارتل ، وتعتبر هـذه النقطة آخر ما وصل اليه التوسيع العربي في الشمال الغربي ويعتبر عام ٧٣٢ بدء المائة الأولى بعد وفاة الرسول .

فلنقف هنيهة عند هذه النقطة الفاصلة في التاريخ لنستعرض الموقف العام : لم تكمل تمر سنة بعد وفاة مؤسس الاسلام حتى صار أتباعه سادة امبراطورية أعظم من أية امبراطورية كانت تمتد من خليج بسكاي إلى نهر السند ومن تخوم الصين وبحر آرال إلى الجنادل العليا في النيل وكان اسم النبي العربي مقترنا بلفظ

الجلالة تذكره الألسنة خمس مرات في اليوم من آلاف المآذن المبعثرة فوق جنوب أوربا الغربي وشمال أفريقيا وغرب آسيا ووسطها . وقد أصبحت دمشق عاصمة تلك الامبراطورية الشاسعة وكان قصر الأمويين يتلألأ في قلب المدينة كاللؤلؤة في وسط الحدائق الزمردية التي تحيط به ويشرف على سهل مزدهر يمتد في الجنوب الغربي إلى جبل هرمون الذي تتوج رأسه عمامة من الجليد الدائم وكان هذا القصر يسمى الخضراء ولم يكن مشيده إلا معاوية مؤسس الدولة وكان يقف إلى جوار المسجد الأموي الذي زخرفه الوليد وجعله درة العمارة التي لا يزال تجتذب محبي الجمال . وفي قاعة الاستقبال كنت تجد مقعدا مربعا قد غطى بالوسائد الغالية المطرزة ذلك المقعد هو عرش الخليفة الذي كان يجلس عليه في المقابلات الرسمية وقد ارتدى الملابس الفضفاضة وجلس متربعا وقد وقف إلى يمينه في صف واحد أقرباؤه لأبيه بحسب مقامهم وإلى يساره أقرباؤه لأمه وكان يقف إلى وراء هؤلاء رجال الحاشية والشعراء وأصحاب الحاجات أما المقابلات الرسمية فكانت تعقد في المجلس الأموي الفخم الذي لا يزال حتى يومنا هذا من أفخم أماكن العبادة في العالم ولا بد أن يكون الخليفة سليمان بعد اعتلائه العرش قد استقبل إلى واحدة من أمثال تلكم الجلسات موسى بن نصير وطارق فاتحي أسبانيا ومعهما ذيل طويل من الأسرى بينهم عدد كبير من أمراء القوط الملكيين ذوي الشعور الشقراء والكنوز التي لا يعلم بمقدارها إنسان ، أما إذا أردنا أن نبحث عن حادثة فذة تمثل مجد الأمويين فلن نجد خيرا من هذه الحادثة .

صبغ الدولة بالصبغة القومية

ان صبغ الدولة بالصبغة العربية في عهدي عبد الملك والوليد يتمثل في تغييرها

لغة الدواوين العامة من اليونانية إلى العربية فى دمشق ومن الفهلوية إلى العربية فى العراق والمقاطعات الشرقية وفى سك عملة عربية ولابد أن يكون قد صحب تغيير اللغة بطبيعة الحال تغيير فى الأشخاص (الموظفين) .

ولما كان الغزاة الأول قد جاءوا حديثا من الصحراء وهم يجهلون إمساك الدفاتر والمالية كان عليهم أن يحفظوا فى ديوان مالية الدولة بالموظفين الذين يكتبون اليونانية فى سوريا والذين يكتبون الفارسية فى العراق وفارس ممن كانت لهم دراية بالعمل . ولكن الموقف تغير الآن إذ لاشك أن بعض الموظفين من غير العرب ممن كانوا قد حذقوا فى ذلك الوقت اللغة العربية قد احتفظ بهم كما احتفظ بالطريقة القديمة نفسها ولابد أن التغيير كان بطيئا إذ أنه بدأ فى عهد عبد الملك واستمر طول مدة حكم خلفه ولعل هذا السبب الذى حدا ببعض المؤرخين إلى أن ينسب احداث التغيير إلى الأب وبالبعض الآخر إذ ينسبه الى الابن .

وكانت الخطوة التى اتبعت نتيجة لسياسة مرسومة رسما جيدا ولم تكن نتيجة لبعض الأسباب التافهة .

وأما فى العراق والمقاطعات الشرقية التابعة لها فمما لا شك فيه أن الذى بدأ التغيير هو الحجاج الثقفى .

وفى أيام العرب قبل الاسلام كانت العملة اليونانية والرومانية شائعة التداول فى الحجاز ، كما كان يتداول أيضا بعض النقود الفضية الحيرية .

وقد اكتفى عمر ومعاوية وغيرهم من الخلفاء الأول بهذه العملة الأجنبية التى كانت متداولة فى أيامهم ، ولعلهم فى بعض الحالات كانوا يسكون فوق نقوشها بعض آيات قرآنية وقد سك عدد قليل من القطع الذهبية والفضية قبل أيام عبد الملك ولكن تلك المسكوكات لم تكن إلا تقليدا للطريقين البيزنطى والفارسى

وقد سك عبد الملك فى دمشق سنة ٦٩٥ أول الدنانير الذهبية والدراهم الفضية التى كانت عربية خالصة ، أما عامله على العراق وهو الحجاج فقد سك عملة فضية فى الكوفة من السنة التالية .

ولم يكتف عبد الملك بوضع أساس هذه العملة الاسلامية الخالصـــة وصبغ الادارة فى الخلافة بالصبغة العربية بل أنه أوجد نظاما منتظما للبريد كانت تستعمل فيه الخيول لنقل المسافرين والرسائل بين دمشق وحواضر الأقاليم وكان الغرض من إيجـــاد هذا النظام فى مبدأ الأمر هو سد حاجات موظفى الحكومة وتنظيم مراسلاتهم ، وكان عمال البريد (أو أصحاب البريد) يكلفون وظائف أخرى من بينها إحاطة الخليفة علما بالحوادث الهامة كل فى مقاطعته ،

الاصلاحات الماليه وغيرها :

وبمناسبة التغييرات فى نظام النقد قد يكون من المناسب أن نشير إلى الاصلاحات المالية والادارية التى حدثت فى ذلك الوقت . وأن المبادىء تنص على أنه لا يجوز أن يدفع أى مسلم مهما اختلفت جنسيته بحال ما أية جزية اللهم إلا الزكاة أو ضريبة الفقراء ، ولكن العمل جرى على أن يظل هذا الامتياز قاصرا على العرب المسلمين وقد استفاد من هذه النظرية عدد كبير من الذين أسلموا حديثا وبخاصة من أهل العراق وخراسان ، فبدأوا الان يهجرون قراهم التى كانوا يعملون فيها كزراع ، ويهرعون إلى المدن يأمل أن يلتحقوا بالجيش كموالى ، وقد أدى هذا إلى خسارة مزدوجة للخسارة ، ذلك لأنه بعد اعتناقهم الاسلام كانت الضرائب التى تفرض عليهم تخفض إلى درجة كبيرة ، كما أنهم حينما كانوا يصبحون جنودا يصير لهم الحق فى الحصول على أعطيات خاصة .

وقد اتخذ الحجاج الوسائل اللازمة لارجاع أولئك إلى ضياعهم ، وفرض

عليهم الضريبة العالية التى كانوا يدفعونها قبل اعتناقهم الاسلام ، وكانت تتضمن مايعادل الخراج (جزية الأرض) والجزية (ضريبة الرؤوس) بل وصل به الأمر إلى حد اضطر العرب الذين كانوا يمتلكون أراضى خراجية إلى دفع ضريبة الأرض المعتادة .

وقد حاول الخليفة عمر الثانى أن يعالج روح التذمر الذى تفشى بين المسلمين الجدد فأعاد المبدأ القديم الذى وضعه عمر بن الخطاب من قبل والذى ينص على أن المسلم سواء كان عربيا أم مولى لا يدفع ضريبة ما ، ولكنه أصر على أن الأرض الخراجية هى ملك مشاع للمجتمع الاسلامى ، وعلى ذلك منع بعد سنة ١٠٠ (٧١٨ — ١٩) بيع الأرض الخراجية للعرب والمسلمين ، وأعلن أن صاحب مثل تلك الأرض إذا اعتنق الاسلام تعود أرضه إلى مجتمع القرية ويصبح له الحق فى الاستفادة منها كمستأجر إلى أجل من السنين .

وعلى الرغم من أن النوايا الحسنة هى التى أوحت إلى عمر بهذا ، إلا أن سياسته لم تنجح إذ قللت دخل الدولة وزادت فى عدد الموالى فى المدن ، وقد اعتنق عدد كبير من البربر والفرس الاسلام ليتمتعوا بهذه الامتيازات العالية التى منحت لهم ولكن العمل فيما بعد عاد لطريقة الحجاج وبتعديلات بسيطة ، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد حدد الفرق بين الجزية وهو عبء يزول باعتناق الاسلام والخراج الذى لا يزول ، ولما كانت الجزية بالنسبة الميزانية تعتبر بندا صغيرا . فان الخزانة العامة ظلت تتلق موردها الرئيسى من الخراج ولم تتأثر بتوالى الزمن تأثرا يذكر .

وهناك إصلاحات أخرى ثقافية وزراعية تنسب إلى حذق الحجاج ونشاطه فقد حفر عددا من القنوات الجديدة وأعاد كرى قناة كبيرة بين الدجلة والفرات

ثم طهرت وزرع كثير من الأراضى المغمورة والبور ، وكذلك كان أول من عنى بوضع علامات الأعجام فى الهجاء العربى ليميز بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء . والثاء . والدال . والذال ، واقتبس من السريانية علامات الحركة ، وهى الضمة والفتحة والكسرة التى كانت توضع فوق الحروف الساكنة أو تحتها . وقد دفعه إلى هذا الاصلاح الهجائى رغبة فى أن يمنع الأخطاء فى تلاوة الكتاب الكريم الذى أعد منه كما هو واضح نسخة يرجع إليها . إن الذى بدأ حياته كمدرس لن يفقد ثبات الاهتمام بالأدب والخطابة وكانت رعايته للشعر والعلوم مشهورة ، وكان الهجاء البدوى من خصائصه ومنافساه الفرزدق والأخطل

وقد أكثر جرير من مدح الحجاج كما كان شاعر البلاط عند الخليفة عمر . وكان طبيبه مسيحيا يدعى تياذوق ، ومات « عبد ثقيف » كما كان يلقبه خصومه العراقيون فى يونية سنة ٧١٤ بمدينة واسط ، وقد بلغ من العمر ثلاثا وخمسين سنة تاركا وراءه إسما هو دون جدال من أعظم الأسماء فى تاريخ الاسلام .

الآثار المعمارية : ـ

ومن الأعمال البارزة فى ذلك العصر ، كثير من الآثار المعمارية التى لايزال بعضها قائما إلى يومنا هذا .

فلقد شيد الخليفة سليمان فى فلسطين على انقاض مدينة ـ أقدم مدينة هى الرملة التى اتخذها مقرا له ، وكانت بعض آثار قصره ماثلة للعيان حتى أيام الحرب العظمى ، وكذلك منارة مسجده الأبيض (وهو يعتبر بعد المسجد الأموى فى دمشق ، وقبة الصخرة فى بيت المقدس ثالث المبانى المقدسة فى سوريا) كما أعاد بناءها المماليك فى الشطر الأول من القرن الرابع عشر ولا تزال إلى يومنا هذا . ومنذ أيام سليمان لم تعد العاصمة الامبراطورية مقر الخلافة ، فكان هشام يقيم فى

الرصافة وهى مدينة رومانية على مقربة من الرقة ، وفى سنة ٦٩١ أقام عبد الملك فى بيت المقـــدس قبة الصخرة الفخمة التى يسميها الاروبيون خطأ مسجد عمر .

أما ان عبد الملك هو بانى القبة ، فذلك ماتدل عليه النقوش الكوفية التى لاتزال محفوظة حولها ، ولقد حدث بعد قرن من الزمان أن أجريت بعض إصلاحات معمارية فى البناء على عهد الخليفة العباسى المأمون الذى كتب اسمه بدون دقة بدل اسم عبد الملك ، ولكنه سها عن تغيير التاريخ ، ذلك أن المهندس العباسى ضيق المسافة بين حروف الاسم الجديد ، فجعلها تزدحم فى المسافة الضيقة التى كان يحتلها فى الأصل اسم عبد الملك ، وعلى مقربة من القبة ، وفى القسم الجنوبى من الحرم بنى عبد الملك مسجدا آخر ربما كان فى موضع كنيسة قديمة ويطلق أهل البلاد على هذا المسجد اسم المسجد الأقصى[1] ، ولكن هـذا اللفظ يطلق بمعنى أعم بحيث يشمل الأبنية المقدسة فى تلك البقعة ، ويطلق اسم الحرم الشريف أيضا على هذه المجموعة من الأبنية ، وهـذا الحرم أقل قداسة من حرمى مكة والمدينة .

أما أكبر البنائين فى بنى أمية فقد كان مع ذلك الوليد بن عبد الملك الذى كان عصره عصر سلام ورخاء إذا قيس بغيره من العصور ، وكان ولع هذا الخليفة بالبناء عظيما حتى أن أهل دمشق كانوا إذا تقابلوا لايتذاكرون إلا فى الأبنية الجميلة كما كان حديث الناس فى عهد سليمان يدور حول الطبيخ ، والنساء الجميلات ، وفى عهد عمر بن عبد العزيز يدور حول الدين والقرآن[2] ؛ وأن الوليد الذى لم يعمر أكثر من أربعين سنة فحسب قد وسع وجمل فى مسجد مكة العظيم وأعاد بناء مسجد المدينة ، وأقام فى سوريا عددا من المدارس ، وأماكن العبادة كما أنه أقام معاهد خاصة ذوى العاهات ، ولعله أول حاكم فى العصور

١ — حطى فى الدولة الاموية

٢ — نفس المصدر السابق

الوسطى شيد مستشفيات للأشخاص المصابين بأمراض مزمنة ، وأن مستشفيات الأمراض المعدية التى كثر عددها فيما بعد فى الغرب قد احتذت هذا المثل الاسلامى (١)

ولقد نقل الوليد من كنيسة فى بعلبك قبة من النحاس المموه بالذهب وأقامها على قبة مسجد أبيه فى بيت المقدس ، ولكن أعظم عمل فى عهده هو تحويل كنيسة يوحنا المعمدان التى استولى عليها إلى مسجد من أعظم أماكن العبادة فى العالم ، ولا يزال المسجد الأموى يعتبر إلى يومنا هذا رابع حرام فى الاسلام بعد المساجد الثلاثة فى مكة والمدينة وبيت المقدس (٢)

وأما فيما يتعلق ببقية الخلفاء فى هذا العصر الزاهر من عصور بنى أمية ، فليس لدينا شىء يمكن أن يقال فيما عدا الخليفة عمر الثانى (٧١٧ — ٢٠) وهشام . أما عمر فانه اشتهر خلال كل العصور بتقاه وزهده الذى كان يخالف فيه مخالفة واضحة ما أثر عن رجال بنى أمية من عدم التقى . والحق يقال إنه كان مؤمن بنى أمية .

كان عمر مصداقا للحديث الذى يقول بأنه يظهر على رأس كل مائة سنة مبعوث يحيى ما اغبر من الاسلام ، ولقد كان عمر هو المبعوث الذى أرسل على رأس القرن الثانى (سنة ١٠٠ هـ) كما بعث المجددون على رأس القرن الثالث الذى تلاه ، ولقد ذكر لنا مترجما وحياة عمر أنه كان يلبس ملابس كثيرة الرقع ويختلط برعاياه كثيرا الدرجة أنه إذا جاء صاحب حاجة وجد من المتعذر عليه أن يعرف الخليفة ، ولما كتب إليه أحد عماله يخبره أن الاصلاحات المالية التى سنت لصالح من اعتنق الاسلام حديثا سوف تنقص ما بالجزانة من مال أجابه عمر بما يأتى :

---

١ — حطى فى المجتمع العربى

٢ - المصدر السابق

تالله ليسرنى أن أرى كل واحد يصبح معدما حتى نضطر أنا وأنت إلى فلح الأرض بأيدينا وكسب قوتنا ، وعمر هو الذى أبطل الاجراء الذى وضع أيام معاوية بسب على المنابر عندصلاة الجمعة .

ولقد كان تقى عمر الذى مات فى التاسعة والثلاثين من عمره من الأسباب التى حالت دون إنتهاك حرمة قبره فى وقت انتهكت فيه فى أيام العباسيين حرمات قبور بعد أمية الأخرى .

ويعتبر عهد هشام (٧٣٤ - ٤٣) رابـــع أولاد عبد الملك خاتمة العصر الأموى الذهبى ، ولقد كان المؤرخون العرب على حق فى اعتبارهم هشاما ابن معاوية وعبد الملك ثالث سلسلة بنى أمية وآخرهم .

وقد حدث عند ما مات ابنه معاوية الصغير وهو جد أموى الأندلس على أثر سقوطه عن فرسه أثناء الصيد وموته أن قال الأب « مستدركا » لقد ربيته ليتبوأ عرش الخلافة وأخذ هو يتعقب ثعلبا ، أما عامله على العراق خالد بن عبد الله القسرى الذى ازدهرت فى عهده هـذه المنطقة وبخاصة بسبب أعمال الهندسة والصرف التى قام بها الحسن البنطى وقد اختص خالد هذا نفسه بفائض تبلغ قيمته ٠٠٠ر١٣٠٠٠ وبعثر باسراف مقدارا يبلغ ثلاثة أمثال ذلك المقدار وكان من أثر ذلك أن لاقى خالد نفس المصير الذى أحاق بكثير من أمثاله فلقد قبض عليه فى سنة ٧٣٨ وسجن وعذب وطالب إليه أن يقدم حسابا عن أموال الدولة وأن يعوض ما ضيعه : وحالته هذه هى مثل واحـــد لسوء الادارة والفساد فى جسم الدولة السياسى الذى ساعد على زعزعـــة عرش الأمويين ووقوع بنى أمية لقمة سائغة فى أيدى منافسيهم العباسيين .

الادارة السياســية والحالة الاجتماعية في عهد الامويين

تتفق الأقسام الادارية للخلافة فى عهد الأمويين وحتى فى عهد أيام العباسيين بوجه عام مع المقاطعات السابقة التى كانت موجودة أيام الراشدين ، وكانت هذه الأقسام تشمل :

(١) الشام وفلسطين - (٢) الكوفة بما فى ذلك العراق (٣) البصرة وفارس وسجستان وخراسان والبحرين وعمان وربما نجد واليمامة (٤) أرمينيا (٥) الحجاز (٦) كرمان والمقاطعات الواقعة على حدود الهند (٧) مصر (٧) افريقيا (٩) اليمن ، وبقية بلاد العرب الجنوبية ، ثم أخذت بعض المقاطعات تضم إلى بعضها بالتدريج ، فنشأ عن ذلك خمس عمالات كبرى ضم معاوية البصرة والكوفة إلى يد عامل واحد ، فكون ولاية العراق التى كانت تستند معظم فارس وبلاد العرب الشرقية ، وكانت حاضرتها الكوفة ، وصار فيما بعد لوالى العراق نائب يحكم باسمه خراسان : وبلاد ماوراء النهر ، وكان فى الغالب يتخذ من مرو مقرا له كما كان له نائب آخر يحكم باسمه السند والبنجاب .

وكذلك ضمت مقاطعات الحجاز واليمن ووسط بلاد العرب ، وكونت ولاية أخرى واحدة . وكانت الولاية الثالثة تشمل الجزيرة (ويقصد بها الجزء الشمالى

الواقع بين نهرى الدجلة والفرات) وأرمينيا وأذربيجان وبعض أجزاء آسيا الصغرى الشرقية .

وكانت الولاية الرابعة تتضمن مصر العليا ومصر السفلى . أما الولاية الخامسة فهى ولاية افريقيا التى كانت تضم شمال أفريقيا الواقع إلى الغرب من مصر والاندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر المجاورة كانت مدينة القيراوان حاضرة تلك الولاية .

أما وظائف الحكومة الثلاثة التى تشمل الادارة السياسية وجبى الضرائب والامامة فى الصلاة ، فقد كان يتولاها فى هذا الوقت فى الغالب ثلاثة موظفين مختلفين . وكان نائب الخليفة (ويسمى أمير أو حاجب) ، فكان من حقه أن يعين عامله على أى جزء فى إمارته ولا يتطلب الامر شيئا من أن يرفع اسمه إلى الخليفة . وفى عهد هشام (٧٢٤ - ٧٤٣) نرى عامل أن أرمينيا وأذربيجان المعين حديثا يقيم فى دمشق ويبعث نائبه بدلا عنه ، وكان للامير الحق التام فى الادارة السياسية والحربية فى امارته ولكن دخل الامارة كان فى الغالب تحت اشراف موظف خاص يسمى صاحب الخراج كان مسئولا مباشرة أمام الخليفة والظاهر أن معاوية كان أول من عين موظفا كهذا إذ أرسل إلى الكوفة وقد كان العرف الشائع فيما مضى يفهم منه أن حكومة أية مقاطعة فى الامبراطورية الإسلامية يقصد بها فى الغالب ادارتها المالية .

وكانت مصادر الدخل للحكومة هى نفس المصادر التى كانت على أيام الخلفاء الراشدين ، وأهمها الجزية أو الخراج الذى كان يفرض على الشعوب المحكومة وفى المقاطعات كانت كل مصروفات الادارة الداخلية والمعاشات السنوية وإعطائه الجند وغير ذلك من النفقات المختلفة تؤخذ من الدخل المحلى

ويرسل الفائض فقط إلى خزانة الخلافة ، وكان الاجراء الذى اتخذه معاوية باسقاطه الزكاة وهى حوالى ٢٫٥ ٪ من المعاشات السنوية للمسلمين اجراء يشبه إلى حد كبير ضريبة الدخل فى الدول الحديثة .

وكان القضاء لا يتعرض إلا لشئون المسلمين فحسب أما غير المسلمين فقد كانوا جميعا يتمتعون باستقلال ذاتى تحت رئاسة زعمائهم الدينيين .

وهذا يفسر لنا السبب الذى من أجله كان لا يوجد قضاء إلا فى المدائن الكبيرة فحسب وكان الرسول والخلفاء الأول يتولون القضاة بأشخاصهم وكذلك كان يفصل القواد والعمال فى مقاطعتهم ذلك لأن وظائف الحكومة المختلفة لم تكن قد حددت اختصاصاتها بعد وكان أول من تخصص للقضاء من الموظفين فى المقاطعات يتلقى تعيينه من حاكم المقاطعة .

وفى عهد العباسيين كان الغالب أن تحدث هذه التعيينات من الخلفاء وتنسب الروايات إلى عمر أنه عين قاضيا على مصر فى سنة ٢٢ هـ . (٦٤٢) وبعد سنة ٦٦١ نجد فى تلك المملكة سلسلة منتظمة من القضاة يعقب الواحد منهم الآخر . وكان هؤلاء القضاة ينتخبون دائما من طبقة القضاء التى كان أعضاؤها من العلماء الراسخين فى علوم القرآن والحديث الإسلامى ، وكان يضاف إلى القضاء علاوة على النظر فى القضايا ادارة الأوقاف وأموال اليتامى والمعتوهين .

واكتشف معاوية أن بعض كتبه الممهورة بخاتمه قد زيفت فأنشأ ديوانا للتسجيل (ديوان الخاتم) وهو يشبه ديوان الحكومة وكانت وظيفته أن يحتفظ بنسخة من كل وثيقة رسمية قبل ختمها وارسال النص الأصلى . وفى وقت عبد الملك كان الأمويون قد ظفروا بديوان للسجلات الحكومية (دفتر خانه) فى دمشق .

النظام الحـربى :—

نظم الجيش الاموى فى الغالب على غرار الجيش البيزنطى فكانت كل واحدة تقسم إلى خمسة أقسام القلب والجناحان والمقدمة والمؤخرة . وكان التكوين هو نفس التكوين القديم ونقصد به نظام الصفوف وقد ظل هذا النظام العام معمولا به حتى عهد آخر الخلفاء مروان الثانى (٧٤٤—٥٠) الذى ترك التقسيم القديم وأدخل نظام وحدات الجند الصغيرة المعروف بالكرداس .

أما الزى والدروع فقل إن كنت تفرق فيه بين المحارب العربى والافريقى وكذلك الاسلحة فقد كانت فى الاصل واحدة وكان الخيالة يستعملون سروجا بسيطة مدورة أكثر ما تكون شبها بسروج البيزنطيين وهى على وجه التحديد تشبه تلك التى لا تزال شائعة الاستعمال فى الشرق الادنى أما آلات الحرب الثقيلة (المدفعية) فكانت تشمل العراضة والمنجنيق والدبابة أو الكبس وكانت أمثال هذه الآلات الثقيلة وأدوات الحصار مع متاع الجيش تحمل مع الابل خلف الجيش .

وكانت القوة التى يحتفظ بها فى دمشق مكونة فى الغالب من السوريين وعرب الشام ، وكانت البصرة والكوفة تمد جيش المقاطعات الشرقية بمعظم الجيوش التى تحتاجها وفى عهد السفيانيين بلغ عدد الجيش القائم ٦٠ر٠٠٠ كان يكلف الدولة فى العام ٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم بما فى ذلك اعطيات الاسر . وقد أنقص يزيد الثالث (٧٤٤) المعاشات السنوية ٤٠ ./. ومن أجل ذلك أطلق عليه لقب الناقص . وقد قيل أن عدد الجيش بلغ فى عهد آخر الامويين ١٢٠ر٠٠٠ وهو رقم يخيل الينا أن صحته ١٢و٠٠٠ .

وكان الأسطول العربى بالمثل مشابها للاسطول البيزنطى . وكانت الواحدة المقاتلة تتكون من سفينة أقل ماتحمل ٣٥ مقعدا على كل من سطحيها السفليين وكان يجلس على كل مقعد رجلان وكان المئة رجل أو أكثر الذين يستعملون المقاذيف مسلحين أما أولئك الذين كانوا متخصصين فى الحرب فكانوا يتخذون مقاعدهم على السطح العلوى .

الحيـاة الملـكية :ـ

كان الخلفاء يخصصون امسية أيامهم لتسليتهم وعلاقاتهم الاجتماعية . وكان معاوية مغرما بصفة خاصة بالاستماع إلى القصص والروايات التاريخية ويؤثر فيها ما كان يمت لها عرب الجنوب والمحفوظات الشعرية وإشباعا لهذه الرغبة فى نفسه فانه استحضر من اليمن قصاصا كان يسلى الخليفة فى كثير من الليالى الطويلة . وكان الشراب المحبب هو شراب الورد المشهور فى الأغانى العربيـة والذى لا يزال يرغب فيـه أهل دمشق وغيرها من بلدان الشرق .

أما يزيد بن معاوية كان أول من ثبت أنه سكير من بين الخلفاء وقد اكتسب لقب يزيد الخمور ومن بين ملاهيه تدريبه اقرد مدالل يسمى أبو قيس ومشاركته له فى سكره . وقد روى لنا أن يزيد كان يشرب كل يوم على حين كان الوليد الاول يكتفى بالشرب يوما بعد يوم وكان هشام يشرب مرة فى كل يوم جمعة بعد أداء الصلاة وعبد الملك يكتفى بالشراب مرة واحدة فى الشهر ولكنه كان يكثر الشراب فى هذه المرة حتى كان يضطر إلى فراغ مافى جوفه بالمقيئات ، وكان يزيد الثانى متعلقا أشد التعلق بقينتيه سلامه وحبابه حتى أن الثانية عندما شرقت بحبةعنب رمى بها مداعبا فى فمها أخذ الحزن بالخليفة حتى كاد يقضى نحبه .

ولكن هذا الشغف بالخمر قد ورثه عنه ابنه الوليد الثانى (٧٤٣ ، ٤٤) وهو إباحى مستهتر قيل انه كان يعتاد السباحة فى بركة من الخمر .

وقد ورد أن الوليد فتح القرآن ذات يوم فوقعت عينه على هذه الآية « واستفتحوا وخاب جبار عنيد » لخزن الكتاب المقدس، بقوسه ورمحه وأخذ فى نفس الوقت يتحداه ببيتين من الشعر من تأليفه الكريم .

وكان هذا الخليفة يقضى أوقاته فى قصوره الصحراوية التى كان يقع أحدها عند القريتين .

وقد ذكر لنا صاحب الاغانى رواية شاهد عيان لبعض حفلات الشراب الداعرة فقال انها كانت دائما تحفل بالرقص والغناء والموسيقى التى يقوم بها القيان فاذا كان الخليفة واحدا من الذين يحترمون أنفسهم إلى حد ما فانه كان يجلس من وراء ستار يفصل بينه وبين منادميه فاذا لم يكن كذلك كما هى الحال مع الوليد فانه كان يندمج فيهم كواحد منهم تماما .

ولم تكن أمثال هذه الحفلات تخلو كلية من القيمة الثقافية إذ لا شك أنها شجعت على رقى الشعر والموسيقى هذا الجانب من الحياة المنطوى على تربية الذوق ولم تكن كلها خلاعة وتهتكا فحسب .

ومن بين الملاهى البريئة التى كانت شائعة فى ذلك العصر والتى كانت تشغل الخلفاء وغيرهم من رجال البلاط يجب أن نذكر الصيد وركوب الخيل ولعب النرد ولعل لعبة الكره والصولجان التى صارت فيما بعد من الألعاب الجيدة عند العباسيين قد أدخلت من فارس قرب نهاية العصر الاموى ولم يكن صراع الديكة غير شائع الحدوث فى ذلك العصر .

أما الصيد فكان هواية معروفة فى بلاد العرب من قبل وكانت الكلاب السلوقية نسبة إلى سلوق ببلاد (اليمن) هى التى تستعمل فى الصيد فحسب . أما استعمال الفهد فقد كان فى عصر متأخر وينسب الفهد إلى كليب بن ربيعة بطل حرب البسوس أنه كان أول عربى يستعمل الفهد فى الصيد . ولقد كان الفرس والهند يدربون هذا الحيوان قبل أيام الحروب بزمن طويل ، وكان يزيد الأول ابن معاوية أول صياد عظيم فى الاسلام وأول من درب الفهد على الركوب على كفل الحصان وكان يزين كلاب صيده بخلاخيل الذهب ويخصص لكل منها عبد لخدمته . وكان سباق الخيل من الأمور المحببة جدا لدى الأمويين ،

وكان الوليد بن عبد الملك أحد الخلفاء الأوائل الذين عنوا به ووضعوا تحت رعايتهم حفلات السباق العامة . أما أخوه وخليفته سليمان فقد ادركه الموت بعد أن أكمل العدة لاقامة حفلة سباق قومية وفى إحدى حفلات السباق التى نظمهما أخوهما هشام بلغ عدد خيول السباق من الاسطبل الملكى وغيره من الاصطبلات ٤٠٠٠ وهو عدد لا نجد له نظرا فى تاريخ الاسلام أو فى التاريخ الاسلامى وكانت إحدى بنات هذا الخليفة المحبات لديه تحتفظ بعدة من خيول السباق .

ويخيل إلينا أن نساء القصر الملكى كن يتمتعن نسبيا بقسط وافر من الحرية

فلقد روى أن شاعرا كلبيا يسمى أبا دهبل الجمحى لم يتردد فى أن يتشبب فى قصائده عاتكة ابنة معاوية الجميلة التى كان قد اختلس منها نظرة وقد رفعت نقابها وأستارها وهى فى الحج ثم تعقبها بعد إلى عاصمة أبيها وقد اضطر الخليفة فيما بعد إلى أن يقطع لسان الشاعر ، بأن منحه هبة مالية ووجد له زوجة مناسبة وقد اجترأ شاعرا آخر هو وضاح اليمن الذى كان جميلا على أن ينازل إحدى

زوجات الوليد الأول في دمشق على الرغم من تهديدات الخليفة وأخيرا دفع ثمنا لوقاحته وجسارته حياته .

وكان النفوذ الذى فرضته عاتكة ابنة معاوية الجميلة الثقافية الفكر على زوجها الخليفة عبد الملك كبيرا يمكن تصويره من القصة التى تخبرنا كيف انها كانت تغلق بابها إذا كانت غاضبة من الخليفة وترفض أن تفتحه إلا إذا جاء واحد من رجال البلاط المحبوبين وأخذ يبكى ويقول كذبا ان واحدا من ولديه قد قتل الآخر وان الخليفة مصر على أن يقتل القاتل .

وكان نظام الحريم وما يرافقه من الخصيان قد أصبح كما يظهر لنا نظاما ثابتا إلا فى عهد الوليد الثانى . وكان الخصيان الأول فى الغالب من الروم وقد حذا العالم العربى فى اتخاذهم حذوسا بقيهم من البيزانطيين .

العـــــاصمة :

ليس ثمت ضرر إذ قررنا أن دمشق لم تتغير كثيرا لا فى أسلوب حياتها الخاصة ولا مميزاتها منذ أن كانت عاصمة الأمويين فلقد كانت فى ذلك الوقت كما هى الآن تزدحم شوارعها الضيقة بالدماشقة يخبون فى سرابيلهم الواسعة وقد انتعلوا الأحذية الحمراء المدببة (المراكيب) وعلت رءوسهم العمائم الكبيرة وأخذوا يتدافعون بالمناكب مع البدو الذين صبغت الشمس وجوههم وقد لبس الجبب الفضفاضة ووضعوا فوق رءوسهم الكوفية والعقال وترى الحين بعد الحين بعض الافرنجة فى أزيائهم الاوروبية .

وقد نرى هنا وهناك الدمشقى الغنى من طبقة الأشراف وقد امتطى صهوة جواده بالتجمل بعباءة من حرير أبيض وتسلح بسيف أو مزراق ويسير فى الطرقات

عدد قليل من النسوة كلهن منقبات فى حين يسترق البصر أخريات غيرهن من خلال نوافذهن المشبكة إلى الأسواق والميادين العامة وترى باثعى الشربات والحلوى وقد علت أصواتهم كأنما ينافسون ضجيج المارة والعدد العديد من الحمير والابل المحملة بمختلف حاصلات الصحراء والمزارع وقد عبىء جو المدينة شأنهم فى غيرها من المدائن يعيشون فى أحياء منفصلة بحسب قبائلهم وتستطيع أن ترى فى وقتنا هذا أمثال هذه الحارات (للاحياء) فى دمشق وحمص وحلب وغيرها من المدائن . وكان باب كل بيت يؤدى من الشارع إلى ردهة يتوسطها حوض ماء كبير ينبعث الماء إليه من نافورة فيحدث رذاذه ما يشبه الثقاب وإلى جوار هذا الحوض ترى شجرة برتقال أو ليمون وتحيط الحجرات بالحوض وفى البيوت الكبيرة تمد إلى جوارها رواقا .

ومما يكتسب الفخر الخالد لبنى أمية أنهم جعلوا لدمشق نظاما للماء لم يكن له نظير فى الشرق ولا يزال مستعملا للآن واسم يزيد لا يزال مطلقا على قناة تعرف بنهر يزيد كان ابن معاوية قد حفرها من بردى أو لعله وسعها لكى يوفر ماء الرى للغوطة أو إلى نهر بردى يرجع الفضل فى ازدهار تلك الواحة الغنية خارج دمشق بما فيها من حدائق وعلاوة على نهر يزيد فان نهر بردى له أربعة فروع أخرى تبعث الخصب والحياة فى جميع أنحاء المدينة .

المجتمع :

كان السكان فى جميع أنحاء الامبراطورية ينقسمون إلى أربع طبقات اجتماعية وكانت أعلى الطبقات بطبيعة الحال هى طبقة المسلمين الحاكمة وعلى رأسهم بيت الخلافة وأشراف العرب الفاتحين ولا نستطيع أن نعرف بالضبط عدد هذه الطبقة ففى عهد الوليد الأول بلغ عدد الاعطيات السنوية التى كانت مخصصة للعرب

المسلمين فى دمشق وجندها ٤٥٫٠٠٠ وفى عهد مروان الاول كانت حمص وجندها تسجل عددا من الاعطيات يبلغ ٢٠٫٠٠٠ ولم يكن عدد الذين اعتنقوا الاسلام كبيرا قبل تلك القوانين الحاظرة التى فرضها عمر الثانى وعلى الرغم من أن عاصمة الخلافة كان يبدو عليها فى آخر العهد الأموى انها مدينة إسلامية الا ان الشام على وجه العموم ظلت مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامى ولقد ظلت المدائن الصغيرة والقرى وبخاصة الأقاليم الجبلية وهى دائما وأبدا مأوى المغلوبين محتفظة بطابعها الوطنى وأطرزتها الثقافية القديمة وفى الواقع ونفس الأمر يمكن أن نقرر أن لبنان ظلت مسيحية العقيدة وسريانية اللسان لعدة قرون بعد الفتح ولم يتغير إلا الحدود الطبيعية بذلك الفتح أما الحدود الدينية والجنسية والاجتماعية وأهم منها اللغوية فقد بدأت بعد ذلك فى التغير .

الموالى :

ويلى طبقة العرب المسلمين أولئك المسلمون الجدد الذين اعتنقوا الاسلام كرها أو رغبا وبذلك أصبحوا نظريا وإن لم يكن عمليا يتمتعون بكافة حقوق المواطن المسلم وقد حالت المنجهية العربية نظريا دون تحقيق تلك الحقوق وما من شك فى أنه خلال كل العصر الأموى بالفعل كان ملاك الأرض سواء أكانوا من المسلمين أم غير المسلمين يدفعون ضريبة الخراج وليس هناك دليل يستنتج منه أن كثيرا من الجماهير اعتنق الاسلام فى المقاطعات إلا بعد تلك القوانين الصارمة التى أصدرها عمر الثانى والمتوكل العباسى (٨٤٧ – ٨٦١) وكانت مقاومة المدن الجديدة فى مصر دائما أبدا أقل عنادا . ولقد هبط دخل تلك المملكة من ١٤ مليون دينار فى عهد عمرو بن العاص إلى خمس ملايين فى عهد معاوية وإلى أربعة ملايين فى عهد هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩) . وقد هبط الدخل فى العراق من مائة مليون فى عهد عمر بن الخطاب إلى أربعين فى أيام عبد الملك

ولا شك أن أحد الأسباب التى أدت إلى هبوط دخـــل الدولة كان اعتناق الإسلام من الموالى وقد بدأ يفوق عدد المسلمين الذين ينتمون إلى أصل عربى .
وهبط بهؤلاء المسلمين الجدد إلى طبقة المـوالى فأصبحوا يكـونون أحط طبقات المجتمع العربى وهى حالة كانوا يستاءون منها إلى درجة مرة وهذا يفسر لنا كيف أنهم فى كثير من الحالات كانوا يحتضنون الدعوات الجديدة كدعوة الشيعة فى العراق والخوارج فى فارس ولقد أثبت بعض منهم مع ذلك كما دلت معظم الظروف على أنهم من ناحية الدين كانوا « ملكيين أكثر من الملك » وان حماستهم للعقيدة الجديدة التى بلغت حد التعصب جعلتهم يضطهدون غير المسلمين ومن بين أكثر المسلمين الأول تعصبا بعض أولئك الذين اعتنقوا الاسلام بعد أن كانوا نصارى أو يهـودا .

وفى داخل المجتمع الاسلامى كان أولئك الموالى بطبيعة الحال أول من خصصوا أنفسهم للدراسات العلمية والفنون الجميلة لأنهم كانوا يمثلون أقدم الثقافتين أصلا وكانوا كلما ازدهروا فى ميدان الفكر بدأ المسلمون العرب ينازعونهم الزعامـــة السياسية . ثم إنهم بتزاوجهم مع العرب الغزاة ساعدوا على تهجين الدم العربى وجعلوا ذلك العنصر غير واضح وسط ذلك الخليط من مختلف الأجناس .

أهل الذمة :

أما الطبقة الثالثة فكان أفرادها هم أولئك الذين أحسن المسلمون معاملتهم من معتنقى الكتب المنزلة وهم المعروفون باسم أهل الذمـة ويقصد بهم المسيحيون واليهود والصابئة الذين أعطاهم المسلمون عهدا .

وكان أهل الذمة يتمتعون فى نظير دفع الخراج والجزية بقسط كبير من التسامح الدينى وكانوا يخضعون فى الأمور المدنية وكافة الاجراءات القانونية إلى رؤسائهم الروحانيين اللهم إلا إذا كان الامر يتعلق بمسلم ذلك لأن القانون

الاسلامى كان يعتبر من القداسة بحيث لايجوز تطبيقه عليهم إلا برضاهم وقد ظلت الأجراءات الأساسية نافذة المفعول حتى العصر العثمانى ويمكن أن نتعقب آثارها فى الوقت الحاضر فى الأوامر الشرعية الى حدما .

ولقد كانت حالة التسامح هذه فى الأصل قاصرة على أهل الكتاب الذين ورد ذكرهم فى القرآن والذين خضعوا لحكم المسلمين ولكن المسلمين جعلوها فيما بعد تشمل عبدة النار من الزردشتيين (المجوس) ووثنى حران وعباد الأصنام من البربر، ولقد كان المسلمون الفاتحون يخيرون المجوس من الفرس وبربر شمال أفريقيا بين الاسلام أو الجزية أو السيف ولا يكتفون بذكر الأول والثانى فقط وذلك على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا أصحاب دين منزل .

وكان المسيحيون فى طول بلاد الشام وعرضها يعاملون معاملة حسنة فى عهد بنى أمية الى أن كان عهد الخليفة التقى عمر الثانى ولقد ذكرنا من قبل أن امرأة معاوية كانت مسيحية وكذلك كان شاعره وطبيبه والمتولى أموره المالية وكذلك كان الحال إذا استثنينا ما حدث فى عهد الوليد الأول من أنه أمر باعدام زعيم القبيلة العربية المسيحية قبيلة بنى تغلب لأنه فيما قيل رفض اعتناق الاسلام وحتى الأقباط فى مصر فانهم قاموا بعده ثورات ضد سادتهم المسلمين قبل أن يتم اخضاعهم نهائيا فى أيام المأمون العباسى (٨١٣-٨٣٢) نتيجة للاضطهاد الذى يخالف روح الإسلام .

عهد عمر :

لا تعتمد شهرة عمر الثانى على تقاه أو وضعه الجزية عن المسلمين الجدد

فحسب ، فلقد كان عمر أول خليفة وأول أموى فرض قوانين على رعاياه المسيحيين الذين حاولوا التمرد وهى قوانين يخطىء بعض المؤرخين فينسبها الى سميه السابق وجده الأكبر لأمه عمر الأول : إن عهد عمر الثانى قد وصل إلينا فى عدة صور معظمها فى المراجع المتأخرة وتتم محتوياته عن علاقات شديدة بين المسلمين والمسيحيين لم يكن مستطاعا أن تتكون فى الصدر الأول فى الفتوح الاسلامية ويقال ان أروع ما أصدره هذا الخليفة الأموى من أوامر هى إبعاد المسيحيين من الوظائف العامة وحظره عليهم لبس العمائم وطلب ان يجزوا نواصيهم وأن يتخذوا ملابس خاصة تميزهم ويعقدوا الزنانير (الأحزمة الجلدية) على أوساطهم ولا يتخذوا السروج لدوابهم أو يكتفوا بسروج الحمل والا يقيموا أبنية لعبادتهم وألا يرفعوا أصواتهم فى أوقات الصلاة وكان هذا القرار ينص على أنه إذا قتل مسلم مسيحيا لا يتجاوز عقوبته الغرامة كما كان ينص على أن لا تقبل شهادة مسيحى ضد مسلم فى المحاكم ، ومن الواضح أن اليهود كانوا يخضعون لبعض هذه القوانين وأنهم استبعدوا أيضا من الوظائف الحكومية ولم يستمر العمل بهذه القوانين طويلا كما يدل على ذلك ما ورد من أن خالد بن عبد الله القسرى حاكم العراق على عهد هشام بنى فى الكوفة كنيسة ليرضى أمه المسيحية ومنح المسلمين واليهود حق بناء أماكن لعبادتهم لهم بل ووصل به الأمر الى حد أن عين المجوس فى بعض الوظائف الحكومية (١)

الرقيـــــق :

كان يقف فى أدنى درجات السلم الاجتماعى الرقيق أو العبيد ولقد أقر الاسلام النظامى القديم للرق ولكنه حسن حالة الرقيق الى درجة عظيمة فلقد حرم القانون الاسلامى على المسلم أن يسترق المسلم ولكنه لم يبح الحرية للعبد الأجنبي الذى لم يعتنق الاسلام .

١ — فيليب حتى

وكان الرقيق فى أول عهد الاسلام يؤخذ من أسرى الحرب ومن بينهم النساء والأطفال إلا إذا دفعوا الفدية كما كان يؤخذ عن طريق الشراء أو الغزوات وسرعان ما أصبحت تجارة الرقيق من التجارة الشائعة التى تعود بالربح الجزيل فى كافة أنحاء البلاد الاسلامية وكان بعض الرقيق الذى يجلب من شرق أو أواسط افريقية أسود اللون كما كان الرقيق الذى يجلب من فرغانه أو التركستان الصينية أصفر اللون فى حين كان ما يجلب من الشرق الأدنى أو من شرق أوربا وجنوبها أبيض اللون وكان الارقاء الأسبان يطلق عليهم اسم الصقالبة وكان ثمن الواحد منهم يقرب من الف دينار فى حين كان لا يساوى ثمن الرقيق التركى أكثر من ستمائة دينار .

ويمكن أن نكون فكرة عن ضخامة الرقيق الذى غمر الامبراطورية الاسلامية نتيجة للفتوح من امثال هذه الأرقام المبالغ فيها كالذى ورد عن موسى بن نصير من انه ساق ٣٠٠,٠٠٠ مائتى الف اسير من افريقية قدم خمسهم الى الوليد وانه أسر من الأشراف القوط فى اسبانيا ٣٠,٠٠٠ ثلاثين الف عذراء ، اما عدد الذين اسرهم قتيبة من بلاد الصغد وحدها فقد بلغ ١٠٠,٠٠٠ ، وكان الزبير بن العوام ملك من بين ما يملك من متاع آخر ألف عبد وأمة .

وكان الشاعر المكى المشهور بالغزل عمر بن ابى ربيعة (المتوفى حوالى ٧١٩) يملك اكثر من سبعين عبدا وكان أى أمير أموى يملك من العبيد والجوارى ما يقرب من الف ولا يستدعى الأمر غرابة فقد كان الجندى العادى (النفر) فى الجيش الشامى عند معركة صفين يملك من عبد إلى عشرة عبيد يقومون

وكان يجوز للسيد أن يتمتع بأمة دون أن يعقد زواجا وكان الأولاد الذين يأتون ثمرة لهذا ينتسبون إلى سيدهم وبذلك يعتبرون أحرارا ولكن حالة السرية (الأمة) ترتفع إلى حالة أم الولد فلا يجوز أن يبيعها سيدها الزوج أو يمنحها لآخر وكانت تعتق عند وفاته ولا شك أنه كان لتجارة الرقيق أثر فعال فى الاجراء الذى أسفر فى آخر الأمر من امتزاج تزاوج العرب مع الاجانب

وكان عتق الرقيق ينظر إليه كعمل من أعمال القربى يلقى جزاءه السيد فى الدار الآخرة فاذا اعتنق الرقيق فانه يصبح مولى من موالى سيده السابق الذى يصبح حاميا وراعيا له فاذا مات السيد دون أن يعقب نسلا أو عصبة كان للمولى الحق فى أن يرثه .

المدينة ومكة :

لقد اجتذبت المدينة بحياتها الحادثة وما أحاطه بها المجتمع الاسلامى الأول من وقار جمهور العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة ذكريات ماضيها المقدس وجمع الانظمة القانونية والدينية .

ولما كانت المدينة تضم جثمان الرسول فانها أصبحت مركزا لدراسة الحديث الاسلامى الذى تحول الى علم فى الطبقة الاولى من الرق بفضل أمثال أنس بن مالك وعبد الله بن عمر بن الخطاب .

أما مدرسة مكة فترجع شهرتها إلى عبد الله بن العباس الملقب بابن عباس (المتوفى حوالى سنة ٦٨٧) وهو ابن عم النبى وجد الخلفاء العباسيين ولقد كان رجلا واسع الشهرة محبا لعلمه العميق بالحديث والفقه ولمهارته فى تفسير القرآن وهى أمور حملت الناس على أن يلقبوه بلقب حبر الأمة .

ولقد تغيرت مظاهر مدينتى الحجاز تغيرا كليا فى عهد الأمويين . فأما المدينة

عاصمة الخلافة فقد لجأ إليها إذ ذاك عدد كبير من أرادوا أن يكونوا بمنأى عن الاضطرابات السياسية أو رغبوا فى أن يتمتعوا بما كسبوا من غنائم حروب الفتح دون أن يعكر صفوهم أحد وحذا الكثير من الأغنياء فى ذلك حذو الحسن والحسين فهرعوا الى المدينة وكنت ترى فى داخلها القصور الشامخة وفى أرضها المنازل الريفية المستقلة (الفلات) تضج بالخدم والعبيد الذين يوفرون لسادتهم كل وسائل الترف والنعيم .

وأما مكة : فلم تكن أقل من أختها المدينة اجتذابا لمحبى الراحة والمسرات وتبع ازدياد وسائل الترف فى المدينتين رذائل الترف الممقوتة . وكان الحجاج من جميع أنحاء العالم الاسلامى يحضرون معهم فى كل سنة مقادير هائلة من المال لله ما أعظم الفرق بين هذا وبين الايام الاولى حين جاء عامل الخليفة عمر من بلاد البحرين يعلن أنه يحمل جزية يبلغ مقدارها ٥٠٠,٠٠٠ درهم . لقد تساءل الخليفة عن إمكان جمع مثل هذا المقدار ولما اكدوا له مرتين ذاكرين أن المبلغ مائة ألف مضاعفة خمس مرات صعد الى المنبر وقال ما مضمونه « أيها الناس لقد وصل الينا قدر من المال هائل فان رغبتم فانا نوزعه عليكم بالكيل وإلا فبالعد[1] » .

لقد أصبحت المدينتان المقدستان بعد تدفق الأموال المتزايدة أقل قداسة إذ تحولتا الى مركزين من مراكز المسرات والملاهى الدنيوية وموطنا للموسيقى والغناء العربى غير الدينى ولقد نشأ فى مكة ما يشبه النادى كان يؤمه الضيفان وتذكر الرواية أنهم كانوا يعلقون أرديتهم الخارجية على مشاجيب وهو كما ترى أمر لم يكن معروفا فى الحجاز وذلك قبل أن ينغمسوا فى لعب الشطرنج أو النرد (الطاولة) أو القراءة وكان يهرع الى المدينة القيان المغنيات الفارسيات والبيزنطيات اللواتى كان يتزايد عددهن باستمرار وانتشر الشعر الغزلى فى ظل هذا التطور

١ — حطى فى الدولة الأموية

الجديد وكانت البيوت السيئة السمعة (بيوت القيان) كثيرة يرتادها من لا يقل شهرة عن الفرزدق . وفى الوقت الذى كان فيـــه أولئك الاماء يغنين ويطربن بأنغامهن العذبة سادتهم الاغنياء وضيفانهم كنت ترى الآخرين وقد لبسوا الأردية الملونة وقد اتكأوا على الوسائد المربعة وهم يستنشقون عبير البخور ويرتشفون فى جامات من الفضة خمور الشام الحمراء .

وكانت المدينة فى عهد المراونيين الأول تفخر بأنها تضم واحدة من أشهر نساء العصر تلك هى السيدة سكينة المتوفاة (سنة ٧٣٥) ابنة الحسين وحفيدة على ابن أبى طالب .

وكانت مكانة سكينة وعلمها وحبها للغناء والشعر وما اتصفت به من جاذبية وحسن ذوق وسرعة خاطر من الأمور التى جعلتها صاحبة الراى فى ابتكار الأزياء وفى الجمال والأدب فى منطقة المدينتين المقدستين .

وقد اشتهرت سكينة بفكاهاتها وسخرياتها . ومن فكاهاتها للفجة التى نالت التقدير حتى فى أرق المجتمعات فى ذلك العصر ما ذكر من أنها جعلت أحد شيوخ الفرس المسنين يجلس على قفص مملوء بالبيض ويقوق كالدجاجة الأمر الذى طرب له ضيفانها (١)

ويذكرون حكاية أخرى تتلخص فى أنها أرسلت كلمة الى رئيس الشرطة تخبره أن سوريا اقتحم عليها مخدعها فلما أسرع رئيس الشرطة ومساعده بالمجيء اليها وجدها وقد امسكت ببرغوث ، وكانت سوريا فى ذلك الوقت كما هى الآن مشهورة شهرة عظيمة ببراغيثها . وكانت تعقد اجتماعات رائعـــة فى دارها تضم الشعراء والفقهاء فيما يشبه « الصالونات » فى العصر الحديث وكانت تملأ هذه المجتمعات

---

١ ـ حطى فى الدولة الأموية .

دائما بنكاتها اللاذعة وأجوبتها المفحمة . وكانت تعتز بأسلافها وبابنتها التى كانت تميل دائما الى أن تزينها بالمجوهرات وكانت تعتنى بشعرها ولها طريقة خاصة فى تصفيفه وقد أصبحت طريقة تصفيف سكينة للشعر (الطره السكينية) شائعة حتى حظرها الخليفة عمر الثانى الذى كان أحد أخوته قد تزوج من سكينة دون أن يتم الزواج

أما فيما يتعلق بالأزواج الآخرين المتعاقبين الذين أسبام سحر هذه السيدة لفترة قصيرة أو طويلة فان عددهم يبلغ زهاء العشرة . ولقد كانت فى أكثر من زواج واحد تشترط قبل الزواج أن تكون حرة التصرف المطلق (تحتفظ بعصمتها) (١)

ونحن نشك فى كلام حطى الذى أسلفناه ونظن أن معظم المصادر التى سردت هذه القصص دخلها الاغراق بله المباكتة وهى مصادر الى الأدب التصويرى أقرب منها الى التاريخ .

على أنه كان لسكينة منافسة فى الطائف ذلك المصيف المشهور الذى كان يلجأ إليه الأشراف من أهل مكة والمدينة ونقصد بها عائشة بنت طلحة التى كانت موضع اهتمام كثير من أولئك وكان أبو عائشة هو الصحابى المشهور طلحه أما أمها فكانت حفيدة أبى بكر وأخت عائشة أحب زوجات الرسول اليه وكانت ابنة طلحة هذه تجمع الى مشرف محتدها الكريم جمالا نادرا وكبرياء وروحا عالية وتلكم هى الصفات الثلاث التى كان يقدرها العرب فى المرأة حينئذ وكانت طلباتها بالغة ما بلغت لا يمكن أن ترد وكان الناس يحفلون لمرآها أكثر من حفلهم لمرأى سكينة .

ولقد حدث ذات مرة حين كانت تؤدى فريضة الحج فى مكة ان طلبت الى أمير الحج الذى كان أيضا عامل المدينة أن يؤخر اقامة الصلاة حتى تتم آخر طوفاتها السبع حول الكعبة وقد أجاب الوالى الأموى طلبها وكانت نتيجة ذلك

---

(١) نفس المصدر السابق .

أن الخليفة عبد الملك عزله من وظيفته ولم تتزوج عائشة أكثر من ثلاث مرات ويقال انه طلب إليها زوجها الثانى مصعب بن الزبير الذى كان أيضا قد تزوج من سكينة والذى قيل انه أمهر كل واحدة منهما مليون درهم الا تكشف نقابها عن وجهها أبدا فكان جوابها : مادام الله سبحانه وتعالى قد طبعنى بطابع الجمال فانى أرى أن لا أحجب هذا عن الناس حتى يروا جميل صنعه فيقدسوه ومن أجل ذلك لن أضع النقاب بحال من الأحوال على وجهى (٢)

---

١ ـ فيليب حتى

٢ ـ نفس المصدر : ونحن نشك أيضا فى صحة هذه الرواية بهذا الأسلوب

تعـــدد الفرق الاسلامية

أهل السنة . الشيعة . الخوارج . القدرية ـ المعتزلة . المرجئة

تمهيـــد :

لم يظهر مذهب معين فى عهد الدولة الاموية . كما ظهر فى العصر العباسى . ولم تكن قد تألفت بعد هيئة من العلماء الذين يتمكنون فى سبيل مصالحهم الشخصية من إجبار أولى الامر على الامتثال لفتواهم . أما الانقسام فلم يكن يعدو الآراء السياسية المتسمة بنزعة الأسرة المالكة كذلك لم يكن مدار الخلاف بين الفرق سوى الامامة أو الزعامة الروحية فى الاسلام ، إذ كان الأموى يدعى بأن الامامة قصر على أسرته بينما يرى العلويون أنها حق من حقوقهم ، على حين كان العباسيون يدعون أنها محصورة فيهم باعتبارهم العصبة القريبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والى جانب هؤلاء وأولئك ، كان الخـــوارج ينادون فى عنف بوجوب الاختيار الحر من جميع أفراد الأمة ، دون مراعاة لقيود النسب . الذى كان شعاراً للقرشيين بوجه عام .

أما بنو أمية ، فقد كان بغض آل على من مبادئهم الأساسية التى لا يحيدون عنها . رغم الرجاء الملح من الحسن فى عدولهم عن لعن أبيه .

أما الآراء الدينية ، فانها لم تتخذ اتجاها فلسفيا الا فى عهد متأخر ، ولكن انتشار العلم ، وتعريب بعض المدونات اليونانية والهندية ـ رغم ندرته حينئذ . قد ساعد على اطلاق الفكر من عقاله ، حتى أصبحت المناقشات الفلسفية تثار كثيرا ضواحى العالم الاسلامى ، ولا سيا فى الشام والعراق .

ومن العوامل القوية فى ازدهار النهضة العلمية والمذهبية فى هذا العصر .

الامام جعفر الصادق أحد أحفاد علي بن أبي طالب : فقد كان بما أوتيه من رحابة الفكر ، وسعة الأفق ، وحب البحث والتنقيب ، دعامة قوية في تطور علوم الفقه والكلام حينئذ .

ويعتبر المؤرخون . الامام جعفرا والصادق ، أول من أسس المدارس الفقهية والفلسفية المنظمة في الاسلام ، وقد تتلمذ عليه وفي مدرسته كثير من عظماء الاسلام فيما بعد ، سواء في الفقه من أمثال الامام أبي حنيفة النعمان ، أوفي غيره من الفلسفة والكلام أمثال الحسن البصري ، وواصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة الأول : على ان الصفة البارزة في مدرسة جعفر الصادق ، هي حرية الرأي والقياس ، إذ كان يؤمن بحرية إرادة الانسان ، وانه كامل الاختيار في جميع تصرفاته .

ثم انه كان من خلفاء الامويين ، من كان يؤمن بحرية الارادة التي نادى بها المعتزلة ، ومن هولاء يزيد الثالث وأخوه ابراهيم ، ومروان بن محمد آخر بني أمية كما يلاحظ أن دمشق عاصمة الخلافة كانت تمزج بالمناقشات الفلسفية والعقلية ، وكان من أهم المتزعمين لهذه الحلقات ، ثلاثة من العلماء ، هم : معبد الجهني البصري وغيلان الدمشقي ، وابو يونس الاسواري ، فقد ذهب هؤلاء في تأييد ارادة الانسان ، وحريتها المطلقة . أبعد مما ذهب اليه واصل بن عطاء زعيم الاعتزال ، ومن سبقه .

أما جهم بعد صفوان . وكان يقول بالقدر [1] واعتبر ذعم فرقة القدرية

---

١ - يقول المقريزي في الخطط : أن أول من قال بالقدر في الاسلام ، معبد الجهني ويروى صاحب التيسير أنه جاء رجل الى ابن عمر (رض) فقال إن فلانا يقرأ عليك السلام ؛ لرجل من أهل الشام ، فقال ابن عمر : إنه بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فان كان قد أحدث ، فلا تقرأ مني عليه السلام فاني سمعت رسول الله (صلعم) يقول : يكون في هذه الأمة خسف أو مسخ . وذلك في المكذبين بالقدر (تيسير الوصول إلى جامع الأصول ص ٤٤) ومعبد بن خالد الجهني كان من علماء العراق وله مدرسة بالبصرة ؛ ويبدو أنه استوطن دمشق أخيرا (سيد أمير علي ص ١٧)

ببلاد الشام ، كما كان معبد زعيمها بالعراق ، ثم هجرها الى دمشق فأقام بها .

وقد أبدى ابن عمر رأيه فى قدرية العراق والشام ، حينما سأله يحي بن معمر وحميد بن عبد الرحمن الحميرى ، فبين أن القدرية الذين يقولون ان لاقدر وا أن الامر انف (لم يسبق علم الله تعالى به) هؤلاء ليسوا متبعين لسبيل المؤمنين ، وأنه يبرأ منهم ، وينكر مسلكهم فى الدين .

ولعل اعتناق بعض بنى أمية لمثل تلك المذاهب القدرية والاعتزالية قد انتقل إليهم بواسطة هؤلاء العلماء الذين تفانوا فى نشر تلك النحل المبتكرة فى أيامهم ، وتتلمذوا عليهم ، وأخذوا عنهم .

ومما يشبه هذه البحوث الغريبة لدى سلف المسلمين والتى ساعد على دراستها واعتناقها ، انها « مستوردة » من خارج الجزيرة ، وطريفة لدى أبناء العروبة ، مما يشبهها تماما ما يتنادى به كثير من بنى الإسلام اليوم ، من الدعوة إلى اعتناق ما يدعونه بالاشتراكية ، والديمقراطية ، والفاشية ، والشيوعية والحرية والسلام الخ تلك المذاهب التى لا يعرفها سلف المسلمين ، ولا يعترف بها دين محمد ولا يعتبرها القرآن إلا على أنها منكر من القول ، وزور من المبادىء الهدامة لصريح محمد والقرآن ، بل واعتـــداء صارخ على نظم الإسلام وشريعته .

اجل : ما أشبه الليلة بالبارحة، وما أوثق القربى بين قدرية معبد وصفوان، واشتراكية فلان ، وشيوعية علان فى دولة دينها ونظامها شريعة الإسلام : أو ليس من الخير الذين يتنادون بالمنكر ، أن يتواصوا بالحق ، وبالصبر على مبادىء دين يعتنقونه ، وان يحاولوا جهدهم تطبيق قواعد هذا الدين على أنفسهم وأهليهم ، وأن لا تغرهم تلك البزوق الصاخبة فى غيوم الزيف والالحاد والتمرد ، ونعود بالحديث عن نشأة الفرق الاسلامية فى عهد الأمويين فنقول .

لم يخل هذا العصر من تلك الجماعات التى أسست لنفسها مدارس ذات صبغة

دينية ، و أطلقت على نفسها أسماء معينة . وكان من أهم هـذه المدارس أو الفرق فرقة المعتزلة ، والقدرية ، والمرجئـــة وقد مزجت تلك الفرق ، بحوث الدين ، بنظريات الفلسفة اليونانية والهندية ، وأطلقت لفكرها العنان فى القياس والاستنتاج حتى ليقال : أن يوحنا الدمشقى الملقب بذى اللسان الذهبى [١] كان من العوامل الهامة فى نقل العلم المسيحى والآراء الأغريقية فى ذلك العصر إلى الاسلام ، والذى غـذت به تلك الفرق مبادئها المبتكرة ، والموغلة فى الخروج والابتداع فى نظر جمهرة المسلمين .

وكان يوحنا حفيدا لسرجون الرومى ، الذى كان مديرا ماليا فى بلاط دمشق فى عهد الأمويين ، وكان ملما باليونانية والآرامية والعربيـة فكان ينقل بهذه اللغات ، مختلف العلوم والفنون من تلك اللغات واليها ، وساعده على الظهور فى عصره ، قربه من يزيد الأول ، ومنادمته اياه ـ حتى اتخذه مشرفا على الشئون المـالية فى خلافته ، وبذلك استطاع ان يشبع رغبته فى التدوين والتعريب ، وأن يضع حجر الأساس لذلك النشاط العلمى الذى ظهر فى العصور التالية .

على أن يوحنا هذا ، لم يكن يحفزه الى التأليف ، مصلحة العلم أو خدمة الدولة ولكنه قصد اسداء خدمات الى طائفته من المسيحيين ، إذ كان أهم مؤلفاته حوار حول ألوهية المسيح ، وحرية الارادة الانسانيـة . يقول حطى .

ان من الجائز أن يكون يوحنا قد وضع بذرة القدرية بما كان يثيره من جدل فى حضرة الخليفة الأموى ويعتبر يوحنا الدمشقى ، أعظم رجال الدين وآخرهم فى الكنيسة الشرقية ، وان الترانيم التى ألفها والتى لايزال بعضهـا مستعملا فى احتفالات الزواج لدى البروتستانت حتى الآن . لتعد من أجمل ما وضعه شعراء

---

(١) فيليب حتى فى الدولة الأموية .

الكنيسة فى الأدب الكنسى ، وان يوحنا ليعتبر درة متلألئة فى جسم الكنيسة فى عهد الخلفاء الأمويين : (١)

ونحن لا نوافق هذا المستشرق ، على أن القدرية الاسلامية أخذت كل مبادئها أو بذورها من القديس المسيحى الذى كان يتولى شئون الخراج فى عهد بنى أمية . بل انه كما هو ثابت . قد حاول هؤلاء القدرية ، ان يتفقهوا العلم ، ويتفلسفوا فى الدين ، فضلوا سبيل الحق ، واختلط عليهم الأمر ، وكان لآراء يوحنا واضرابه حظ بارز فى تشويه الحقائق لدى هؤلاء المسلمين ، مما يدل على لباقة يوحنا وسحره وقوة تأثيره ، ويدل أيضا على غفلة الأمويين عن مداخل الجدل ، بسبب إنصرافهم إلى ميادين أخرى فى السياسة أهم بكثير من جدل قديس ، أو مناظرة قدرى ، ولن يقدح فى دين بنى أمية تقريبهم لامثال يوحنا . لانهم لم يفعلوا ذلك الا لجلب خير إلى دولتهم . بسبب تخصص الرجل فى المال واللغات فى عصرهم ، وعدم وجود من يسد محله من المسلمين ، فاختاروه لهذه المهمة فقط ، لينتفعوا بعلمه وخبرته . ثم هم لا يعنيهم فيما وراء ذلك . أن يعلم طائفته ، أو ينشر آراءه لانهم يؤمنون بقوة الايمان لدى جميع المسلمين ، فلا يضيرهم شيئا ذلك القديس يوحنا وعشرة من أمثاله .

بيد أنه مما لا ريب فيه ، ان تلك الآراء التى تسربت الى المسلمين عن طريق يوحنا وإخوانه ، قد آتت ثمارها فى آراء كثير من الفرق الاسلامية . ولدى الكثيرين من امراء المؤمنين سواء فى هذا العصر أو العصور التالية . ونكتفى بهذا القدر لنتحدث عن تلك الفرق بالتفصيل . لتكون لدينا صورة واضحة عن ذلك النشاط فى عهد بنى أمية ، فى الدين والفلسفة .

---

١ — تاريخ الدولة الأموية

أهل السنة :

ظلت الحياة الدينية عند المسلمين ، لا يشوبها جدل الفرق التى نشأت فى عصور متأخرة ، بعد الأمويين ، وذلك بسبب تسرب الآراء الفلسفية والثورية إلى الأمم الاسلامية ، عندما ترجمت العلوم والآداب الاغريقية والهندية والفارسية فاغرم بها المسلمون واعتبروها جديدا فى العلم ، ونتاجا للفكر ، لا يصح ان يهملوه ، أو يغفلوه . بل ينبغى أن ينتفعوا به ، ويفقهوا أمره .

ومن هنا كان علماء السلف ، لا يكاد اختلافهم يقع إلا فى الفروع ، والمسائل الشكلية التى لا تؤثر على أصول الاسلام المتفق عليها بينهم جميعا ، كانوا يعتبرون الجدل فى الأمور العامة ، ضربا من الخروج ، على المتعارف ومنكرا فى الشريعة ، فاطلقوا ، فيما بعد ، اسم الكلام على البحوث التى اخذ يجريها بعض العلماء فى العقائد وأصول الدين . لانها ـ غالبا ـ لا تفيد . بل قد تضر الدين والمسلمين ، بسبب إيقاع الفرقة ـ عادة بين الباحثين فى أمر واحد ، مع اختلاف وجهات النظر من كل منهم فنكره عامة المسلمين تلك النظريات فى علم الكلام وقسا بعض السلف فوصفها بالالحاد والزندقة ، لأن الذين تصدوا لوضعها غلوا فيها ، حتى كفر بعضهم بعضا ، وفسق بعضهم بعضا ، والاسلام دين الجميع والحق لا يتعدد ، والجدل منهى عنه ، حتى يكون وسيلة للحق والحق وحده .

نقول : أنه حتى أواخر الخلافة الرشيدة ، لم يعرف المسلمون تلك الفرق التى جاوزت الحصر بل أن جمهرة المسلمين كانت تدين بالكتاب والسنة ، وجماع الأمة ، سواء فى الدين أو السياسة ، أو الجهاد والادارة ، وفى كل شىء من شئون الدولة الاسلامية .

وذلك هو رأى الجماعة التى دعت نفسها أخيرا بأهل السنة والجماعة ، وإن لم يكن

لها وجود فى العصر الأموى إلا من ناحية واحدة . وهى أنها العامة والجمهور من المسلمين الذين خالفهم المعتزلة والقدرية والمرجئة ، فيما نسقوه من مبادىء تخالف المجمع عليه من المسلمين ، والمقهور لدى جمهرتهم ولكن لم يوجد حتى ذلك العهد من ينظم مبادىء الجمهور ويتزعم الدعاية إليها ضد القدرية ، والمعتزلة ، ويطلق على أتباعه « أهل السنة » أو حزب السنة ، بل ان الذى حدث فعلا هو ان المعتزلة والقدرية والمرجئة ، كانوا من القدرة والقلة . بحيث وقف جميع المسلمين موقف المناهض لهم المنكر عليهم ، واعتبرهم جمهرة المسلمين فى صف الخوارج الذين يحاولون شق عصا الطاعة ، وتفريق كلمة المسلمين .

يقول ابن عمر ـ عندما بلغه قول القدرية ـ إذا لقيت أولئك فاخبرهم أنى برىء منهم وأنهم براء منى (١)

ووصف الحسن البصرى ، واصل بن عطاء عند ما قال بآراء مخالفة للمجمع عليه من أفعال العباد والقدر ، ان واصلا قد اعتزل الجماعة . وانه شذ عن المتفق عليه ، ومثل ابن عمر والحسن البصرى كثير من الصحابة والتابعين الذين انكروا على هؤلاء المخالفين لجمهرة المسلمين . وهؤلاء وأمثالهم ممن عبروا عن رأى الجماعة والزموا الناس بأن لا يخرجوا عن المأثور فى الكتاب والسنة ، واجماع الراشدين . هم النواة التى انبثق منها أهل السنة والجماعة . ولكن فى العصر العباسى والأموى .

وعلى الجملة : فان فرقة أهل السنة بالشكل الذى أقامها عليه الأشاعرة والماتريدية لم تكن موجودة فى عهد الأمويين وإنما نشأت فى عصر متأخر عن عصرنا هذا . أما فى عصر الراشدين والأمويين . فان جماع المذهب السياسى لأهل السنة . هو وجوب اختيار الأصلح لامارة المؤمنين عن طريق الشورى والانتخاب .

وأهم المبادىء الذى نادت بها هذه الفرقة . بعد تنظيمها . إلى جانب مبادىء القرآن

---

١ ـ تيسير الوصول جـ ١ ص ١٣ .

والحديث ، واجماع السلف ، كان فيما يتعلق بتفسير القضاء والقدر ، بعد ان قرر زعماؤها تعلقهما بصفات الله القائمة بذاته ، من العلم والإرادة وماالیهما

ثم تقرير ان افعال العباد ليست مخلوقة للعباد ، وانما هي من صنع الله ، والعبد له فيها كسب فقط ، وأن هذا الكسب لا تأثير له على عموم الخلق لهذه الافعال الذى هو من صنع الله وحده لاشريك له . فالانسان فى الظاهر كاسب مختار ، وفى الواقع مجبر مسير يسلك السبيل التى قدرها الله له ، ولاحول له ولا قوة على العدول عنها مهما حاول اواحتال

وإلى جانب هذه المسألة ، كان اهل السنة يتحدثون عن الصفعات وانها قائمة بذات الله تعالى سواء كانت عين الذات اوغيرها ولكن هناك صفات لله سبحانه يجب ان تثبت له وتقوم بذاته الواجبة الوجود . وذلك خلافا للمعزلة الذين نفوا تلك الصفات . واعتبروا اثباتها ملحقا لنقص بالله تعالى ، ويجب تنزيه الله عن شائبة النقص بكل وسيلة من الوسائل

كذلك مما بحثه متأخروا اهل السنة : مسألة القرآن . وهل هو مخلوق اوقديم وقد لقوا من جراء ذلك بلاء ومحنا كما سنفصله فى موضعه من القسم الثالث من الخلافة ان شاء الله تعالى .

على ان الذى يؤخذ على هذه الفرقة ، التى اطلقت على نفسها اسم اهل السنة : انها خرجت عن مقتضى اوامر السنة التى حرمت الجدل والمناظرات التى لاطائل تحتها فناظرت وجادلت فى امور مشتبهات لم ينص عليها فى كتاب ولا سنة ، بل حث الكتاب على عدم الخوض فيها : لانه لا يترتب عليها اية منفعة للمسلمين . وإنما على العكس . قد ترتب عليها ضرر بليغ بالاسلام والدولة الاسلامية . وفرقت جماعة المسلمين ، واغرت بعضهم على بعض فيما بعد

حدث فى عهد المأمون ان قامت المناظرات فى خلق القرآن واشتد المأمون على الذين يقولون إنه قديم وعلى الموافقين . مما ادى الى فتن لم ينج منها حتى الامام

احمد بن حنبل راس[١] المذهب الحنبلى ، ولاغيره من كبار علماء المسلمين فحبسوا وضربوا وعذبوا . لالشيء الا ذلك الجدل الفارغ حول مسألة لاهنا ولا هناك فى الدين والدنيا . وإنما هى ضرب من الفلسفة السوفسطائية المرغلة . فى الجدل الارعن.

وعلى كل حال . فقد كان اهل السنة فى عصر بنى امية لاوجود لهم كفرقة بل إن جمهرة المسلمين هى التى كانت تدعو إلى ما كان عليه الرسول وأصحابه . فلما حدثت القدرية والمرجئة ، بعد الخوارج والشيعة ، قام بعض السلف فسفة أراء هؤلاء ، وعلى مرالزمن ، وبعد حوالى مائة سنة تقريبا تطورت النظريات السياسية والدينية ، وعربت الفلسفات الشرقية والغربية ، فنشأت فرقة أهل السنة ، ونهض متزعموها فى الدفاع عن رأى جمهرة المسلمين ، والرد على المعتزلة وإخوانهم من أصحاب المبادىء المخالفة لرأى الجماعة . وتحدثوا فى الأمور التى أشرنا إليها وغيرها مما هو مسطور فى موضعه من كتب الملل والنحل والفرق ونكتفى بهذا فى تبيان هذه الفرقة ونشأتها . لنوجز جملة عن الشيعة فى ذلك العصر أيضا .

الشيعة :

كان التشيع قبل عهد بنى أمية ، يقتصر على فكرة تفضيل على بن أبى طالب على من عداه من المسلمين فى منصب الخلافة ، وكان الذين يرون هذا الرأى أقلية من المهاجرين والأنصار ، ومن نهج سبيلهم حتى كانت ثورة الأمصار على الخليفة الثالث ، فوضع السبئية فى دعايتهم حديثى الرجعة والوصية ، وحاولوا حمل المسلمين على اختيار على بن أبى طالب ، ولكنهم لم ينجحوا إلا تحت تأثير القوة والقهر ومن ثم فقد كف كثير من سادة المسلمين عن مبايعة على حينما بايعه الثوار الذين قتلوا عثمان ، لا انكارا منهم لأفضلية الرجل . ولكن كراهية للطريقة التى أخذت بها هذه البيعة وانها من السنن السيئة أن يبايع إنسان ويعطى صفقة يده وهو مكره أذ فى ذلك هدم لمبدأ الشورى والحرية الكاملة التى شرعها الإسلام .

ثم ذهبت خلافة الراشدين ، وخلفتها حكومة بنى أمية فتطور التشيع من فكرة تفضيل آل البيت ، إلى قوة معارضة لخلافة بنى أمية ، وقد اصطدمت الشيعة بالخلافة الأموية فى عصر يزيد الاول . ونجم عنها مذبحة كربلاء ، كما ثار لهذه المأساة أهل مكة والمدينة ، وتكونت فرقة الامامية من ذلك الحين ، فاقلقت راحة الأمويين .

وفى عهد معاوية الثانى ، ومروان الأول ، أعلنت الشيعة الحرب على الأمويين وظلت فى نضال عنيف حتى أخضعهم عبد الملك بن مروان ، وقضى على مقاومتهم العسكرية ، وبذلك لم يستطيعوا القيام بأية حركة إرهابية ذات أثر ، حتى أواخر الدولة الأموية حيث اصطنع الهاشميون أهل خراسان ، ورسموا لهم خطة الدعوة إلى حقهم فى الخلافة . فنشطت الدعوة فى المشرق وكسبت لها أنصارا كثيرين ، ولكن بشكل سرى فى بادىء الأمر حتى تقوى الشيعة ، ووهن شأن الأمويين . فعند ذلك استطاع المتشيعة أن ينقضوا على الأمويين ، ويزيلوا حكومتهم من العالم الاسلامى ، ويقيموا على انقاضها الدولة العباسية الهاشمية من آل البيت النبوى الكريم .

تلك مراحل تطور الشيعة فى العصر الاموى والعصر السابق عليه ومنه نرى ان فرقة الشيعة لم تكن تستهدف من وجودها الاان تكون الخلافة فى آل البيت ففكرتها منحصرة فى المسألة السياسية وكل ماوضع من مبادىء وآراء للشيعة فانما حدث فى عصر متأخر على الدولة الاموية ولم يكن للشيعة مذهب غير سياسى فى ذلك العصر كما حدث فى ايام المأمون ومن تلاه ولذلك فان الخلاف الذى كان بين اهل السنة او جمهرة المسلمين وبين الشيعة لايعدوا المسألة السياسية او الخلافة وكان الجمهور يرى ان وسيلة العنف ووضع الآثار المكذوبة لتعزيز حق آل البيت لاينبغى ان يكون ممن يدعو الى حق . فمن هنا كان جمهرة السلف ينكرون على المتشيعة سلوك هذا المسلك الوعر ولا يقرونهم عليه : وهذا اسب الخلاف بين الجمهور أوأهل السنة وبين

الشيعة حينئذ وسنفصل الحديث عن هذه الفرقة فى عصر العباسيين ان شاء الله تعالى

الخوارج

هذه الفرقة كانت من اخطر الفرق الدينية فى عصر بنى أمية . إذ كانت اهم مبادئها ازالة الفوارق بين طبقات المجتمع العربى والاسلامى والقضاء على نفوذ قريش فى حكم المسلمين ، وجعل الامر شورى يختارون من يرضونه لدينهم ودنياهم ولو كان عبدا حبشيا فى تعبيرهم . ومن هنا كان خطرهم على الامويين . كما اسلفنا بيد ان مما ينبغى لفت النظر اليه . هنا ان هذه الفرقة كان هدفها سياسيا أيضا . ولم تكن المبادئ التى وصفتها فى الدين . من تكفير مرتكب الكبيرة والذين يحكمون بالهوى ومن وجوب جهاد الظالمين والمناداة بكفرهم لم يكن ذلك الا عملا على تقويض النفوذ السياسى القائم على اساس الطبقات التى كانوا يكرهونها اشد الكراهية

وفيما عدا هذا فليس للخوارج اى نشاط فى مسائل العبادات والامور البعيدة عن السياسة . كما حدث فى عصر متأخر [1]، ولعل فيما اسلفنا عن الخوارج فى الكتاب الاول . مايغنى عن اعادته فنجتزىء بهذا ان نوجز جملة عن القدرية والمرجئة والمعتزلة تلك الفرق التى كانت فى بحوثها تتظاهر او تحاول ان تظهر بانها بعيدة عن السياسة ولا تستهدف الا الإصلاح الدينى الذى لا يمت الى سياسة الامة بصلة وان كان الواقع غير هذا كما سنوضحه بعد :

القدرية .

أما القدرية . الذين يقولون: لاقدر وإن الأمر انف : فهم الذين ينفون علم الله وإرادته للاشياء قبل حدوثها فالاشياء انما تقدر عند وجودها فحسب . اما قبل حدوثها فالله لايعلمها ولايريدها . بل هى من عمل الإنسان وإرادته . وكل مايقع للإنسان من خير او شر . فانما هو من صنعه

---

١) يعتبر الاباضية اكثر الخوارج تسامحا . وقد بقى منهم الآن طوائف فى الجزائر وطرابلس وعمان وزنجبار

وارادته وحده ولا دخل لقدرة الله فى شيء من عمله

تلك قولة القدرية الذين بدأ امرهم بالبصرة ودمشق ، وكانوا يتعمقون فى البحث ، ويتقفرون العلم ، ويبالغون فى التفلسف مما جعلهم يخرجون على المسائل المتفق عليها لدى المسلمين فاستهدفوا لنقد السلف والتبرئة من نتائج تلك البحوث التى عملت على تسرب الشك والاضطراب فى المبادىء المقررة فى محكم الكتاب وكان رؤوس هذه الحركة الفلسفية فى عصر الامويين معبدا الجهنى وغيلان الدمشقى وقد استطاعا ان يضما اليهما كثيرا من المسلمين لدرجة ان بعض خلفاء بنى أمية شايعهما واعتنق رأيهما ولعل هؤلاء القدرية كان لهم غرض سياسى يؤيدونه من وراء ذلك فان الذى ينفى تقدير الاشياء قبل حدوثها سيحاول بهذا ان يلقى مسئوليتها كاملة على كاهل فاعلها . ولا يقبل منه عذرا فى اى عمل يأتيه اويذره . لان العمل الصادر عن ارادة الانسان المطلقة التى لا تسيطر عليها ارادة اخرى ينبغى ان يكون العامل له مقدرا لكل ملابساته فاذا اخطأ لن يلتمس له اى عذر فى هذا الخطأ وعلى هذا فان الذين يحاولون اقلاق راحة الدولة الاموية مثلا مسئولون وحدهم عن خروجهم ويجب ان يؤخذوا بكل صرامة ولا ينبغى ان يعتذروا بانهم ارادوا الخير فعاقتهم ارادة الله تعالى لان ارادة الله لا دخل لها فى راى القدرية فى شيء من عمل الانسان وتدبيره وسائر تصرفاته

فالقدرية اذن كانوا عامل تأييد وتدعيم لمركز الامويين ولعل هذا يفسر لنا السبب فى تأييد بعض خلفائهم لحركتهم وانكار المعارضين لهذه الحركة امثال ابن عمر واهل الحجاز ومن على رأيهم

على ان القدرية كانوا قد نهلوا من الفلسفات والديانات الاخرى وخلطوا تعاليم الاسلام بتلك النظريات الجديدة وكان ان عمى عليهم الحق فى الكتاب والسنة فقالوا بما قالوا به وان يقولون الا كذبا

المعتزلة :

وإذا كان القدرية من اوائل الفرق التى تزعمت تلك الحركة الرجعية فى الإسلام فى هذا العصر فانه كان هناك فرقة اخرى نادت أيضا بمبادىء غاية فى الخطورة والتعصب للآراء العقلية والفلسفية وتلك هى فرقة المعتزلة التى تترك لمستشرق[1] امريكى امر الحديث عنها باسلوبه الواعى يقول : نستطيع ان نرجع الى هذا العصر الاموى الاصلى فى كثير من الحركات الفلسفية الدينية التى هزت الاسلام فيما بعد الى اعماقه: ففى النصف الأول من القرن الثامن (الميلادى) ازدهر فى مدينة البصرة رجل يسمى واصل بن عطاء المتوفى سنة ٧٤٨ م وهو مؤسس ذلك المذهب المشهور مذهب انصار العقل المعروف باسم المعتزلة ، وقد سمى المعتزلة بهذا الاسم بسبب مبدئهم الرئيسى والذى يقول بان مرتكب الكبيرة يعتزل صفوف المؤمنين ولكنه لايعد كافرا . وإنما يحتل مركزا وسطا بين الكفر والايمان

وكان واصل تلميذا للحسن البصرى الذى مال فى وقعه ما الى المبدأ القائل بان الإنسان مسير وهو المبدأ الذى يعتبر ركنا هاما آخر فى عقيدة المعتزلة : ذلك ان المعتزلة قالوا ان الانسان يخلق افعال نفسه الاختيارية وانه مخير لامسير فهاجموا فكرة خلق الله لافعال العباد وقالوا ان القضاء والقدر هما توفيق الله للانسان ان يأتى العمل او يتركه ولكن لا تأثير لهما فى افعال الإنسان لأن هذه صادرة عن ارادته الحرة وقدرته الكاملة المتفردة

ومما وضعه المعتزلة اخيرا من مبادىء نفى الصفات واعتبارها غير قائمة بذات الله تعالى ومن ثم حدثت محنة القول بخلق القرآن فى ايام المأمون العباسى والف هذا الخليفة اللجان لامتحان الذين يثبتون صفات لله تعالى واتهمهم بانهم اشباه المسيحيين القائلين بالاقانيم وانه تجب مجاهدتهم حتى ينزهوا ذات الله عن شائبة التعدد المقتضى للشرك . وترتب على ذلك التعذيب والتنكيل

---

١ — فيليب حتى فى الدولة الاموية

بأئمة المسلمين امثال احمد بن حنبل وبشر بن الوليد وابن مقاتل والزيادى وغيرهم وقد بالغ المأمون فى الانتصار لما ظن انه الحق كما سنفصل ذلك فى موضعه ان شاء الله

وعلى الجملة فان المعتزلة قد نشأت فى عصر الامويين ولكن بشكل لا يلفت النظر كثيرا اذ كانت مجرد خلاف فى وجهات النظر بينها وبين المتعارف لدى عامة المسلمين ومن هنا لم يكن لهذه الفرقة نشاط ملحوظ طوال عهد الامويين وأوائل عصر بنى العباس وانما قوى شأنها فى اواخر العصر العباسى الاول فى عصر المامون كما اشرنا آنفا

المرجئة

كان للحركة القدرية التى تحمل الانسان كل المسئولية عن جميع مايصدر عنه الى جانب الخوارج الذين يكفرون مقترفى الكبائر فى الدين والسياسة والمعتزلة الذين يصفون هؤلاء فى منزلة وسطى بين الكفر والايمان ولكنهم يخرجون من قائمة المؤمنين . الى سجلات الفساق الفاجرين [1] نقول . كان الى جانب هؤلاء واولئك

---

(١) ونترك للشهر ستانى ذكر الحادثة التى نشأ على اثرها الاعتزال ووجدت فرقة المعتزلة يقول : السبب فى ذلك انه دخل واحد على الحسن البصرى فقال ياامام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون اصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيد به الخوارج وجماعة يرجئون اصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لاتضير مع الايمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الايمان ولا يضر مع الايمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة وهم العمل على مرجئة الامة تحكم لنا فى ذلك فتفكر الحسن فى ذلك وقبل ان يجيب . قال واصل بن عطاء انا لااقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين .. ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ماأجاب به على جماعة من اصحاب الحسن فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فسمى هو واصحابه بالمعتزلة (الملل والنحل ج ١ ص ٥٥)

حركة مضادة لتلك الحركات كلها . سواء من العامة (اهل السنة) او المعتزلة أو القدرية أو حتى الشيعة نفسها واولئك هم فرقة المرجئة الذين ذهبوا الى القول بارجاء الحكم على مرتكبي الكبائر وانهم لا يصح الحكم عليهم بالخروج من الملة كما ادعى الخوارج ولا بوضعهم بين الكفار والمؤمنين كما قال المعتزلة ولا بالحكم عليهم بالفسوق والعصيان كما قال اهل السنة بل هؤلاء المجترحين للآثام الجسيمة يجب ان يرجأ أمرهم الى الله وبهم يفعل بهم ما يراه مناسبا لذنوبهم فلا ينبغي التعجيل بالحكم عليهم قبل ان يصدر أحكم الحاكمين حكمه الحاسم في جرائمهم لان ذلك افتيات على قضاء الله سبحانه

كانت المرجئة اذن عاملا قويا في تدعيم خلافة بني امية التي كانت تلاقي رشدا أشد الحملات من معارضيها بسبب انحراف الكثير من خلفائها عن جادة الحق والدين وكانت تلك الوخزات الداميه هي السلاح الباتر الذي شرعه خصوم بني امية على سياستهم في الحكم وإدرتهم وإدارتهم للاقاليم وكادت تلك الحملات تؤتي ثمارها وتقوض اركان هذه الدولة لولا تلك الحركة العكسية التي قام بها محمد بن شبيب والصالحي والخالدي من مرجئة القدرية [1] . ويونس السمري وغسان الكوفي وثوبان

---

[1] يقول الشهرستاني : المرجئة اصناف اربعة : مرجئة الخوارج ومرجئة القدرية ومرجئة الجبرية .والمرجئة الخالصة (ج ١ ص ١٤٥) ويقول في مكان آخر : ومن العجب أن غسان (الكوفي) كان يحكي عن ابي حنيفة رحمة الله . مثل مذهبه . ويعده من المرجئة ولعله كذب : ولعمري كان يقال لأبي حنيفة واصحابه : مرجئة السنة وعده كثير من اصحاب المقالات من جملة المرجئة ولعل السبب فيه انه لما كان يقول : الايمان هو التصديق بالقلب وهو لا يزيد ولا ينقص ظنه انه يؤخر العمل عن الإيمان والرجل مع تخرجه في العمل كيف يفتي بترك العمل وله سبب آخر . وهو انه كان يخالف القدرية والمعتزلة وكان هؤلاء يلقبون مخالفيهم =

المرجئ وابو مروان غيلان الدمشق وابو شمر ويونس ابن عمران والفضل الرقاشي والعتابي وغير هؤلاء ممن تعصبوا لمذهب الارجاء ووالوا الخلافة الاموية فافسحت لهم من رحابها واغدقت عليهم وازرتهم فكانوا عاملا قويا فى تعضيد سياستها ومقاومة معارضيها

وعلى الجملة . فان هذه الفرقة كانت من أهم الفرق التى كسبت كثيرا من الانصار فى الدولة الاموية . بسبب تسامحها الذى لا يحد وتأييد الامويين لمبادئها التى استخدموها لتخفيف الحملات القوية من ناحية المعارضة

ونختتم الحديث عن تلك الفرقة بقول حطى فى ذلك : لقد رفض المرجئة بصفة

= فى القدر مرجئا وكذلك الوعيدية من الخوارج . فلا يبعدون اللقب انما لزمهم من فريقى المعتزلة والقدرية (ج ١ ص ١٤٥) ويقول فيليب حطى : كان المرجئة على وجه العموم من القار التسامح وأعظم افراد الفريق المعتدل من هذه الفرقة الإمام العظيم ابو حنيفة المتوفى سنة ٧٦٧م والذى اسس اول مذهب من مذاهب اهل السنة فى الفقه الاسلامى (تاريخ الامويين)وقد عمدنا الى نقل ماراه الشهرستانى عن ابى حنيفة النعمان وأتهامه بالارجاء فى القرن الخامس الهجرى الذى كتب فيه الشهرستانى ملله ونحله والذى كتبه المستشرق فيليب حطى لكلاب التاريخ فى امريكا : بعد اتهام الامام الاعظم بانه من المرجئة فى القرن الرابع عشر الهجرى ولكن الفرق بين الشهرستانى وحطى . ان الأول . ذكر التهمة ونفاها بالدليل المادى واما حطى فانه سجلها على انها حقيقة ثابته لم يختلف فيها اثنان وذلك هو مبلغ الدقة العلمية والاخبارية بين علماء السلف من المسلمين وعلماء الغرب من المحدثين بينما يبلغ الزمن بين الكاتبين حوالى تسعة قرون ونيف . ومع هذا فقد بزا الشهرستانى فيليب حطى من الدقة العلمية والامانة التاريخية . وذلك من اقصى المشرق . وهذا من نص المغرب

خاصة ان يروا فى وســـائل الخلفاء الامويين الصارمة مبرر كافيا لعدم الاعتراف بالطاعة لذلك البيت باعتبارهم الزعماء السياسيين بالفعل للمسلمين . وكان يكفى فى نظر هذه الفرقة ان يعتبر الاميون مسلمين ولو اسما . وكذلك قرروا ان عثمان وعليا ومعاوية مسلمون وانهم جميعا عباد الله . يتولى وحده محاكمتهم وجزائهم[1] وقد ارادوا ان يضعوا حدا لقذائف الخوارج ، وتطرف الشيعة ، واستطاعوا ان ينجحوا الى حد ما وان يؤخر بعض الشي انهيار الدولة الأموية التى قضى عليها تذمر الموالى اكثر مما اذهبتها دعاية آل البيت من آل محمد

أما بعد :

فهـل جنى الامويين ثمرا من تعدد هـذه الفرق الاسلامية ام أنهم جنوا على انفسهم من تنابذهـا واختلافها وكيل التهم والقذائف من بعضها للبعض الآخر .

ان الناظر الى الظروف التى كانت تحيط بالخلافة الاموية منـــذ نشأتها الى سقوطها . ليحكم حكما لامرية فيه بان الامويين كانوا مدفوعين دفعـــا الى مقاومة كثير من هذه الفرق ، وخلق عديد منها ليحكموا شعوب الخلافة ويظفروا بالطاعة والخضوع من افراد تلك الدولة المترامية والتى كانت القـوة المسلحة ، اظهر الوسائل فى بسط سلطان بنى امية على ربوعها .

لقد قامت الدولة الاموية بالفعل بعد مقتل عثمان إذ هب معاوية فى وجه على يعارضه بيعته ويتهمه بأنه من مدبرى ازالة عثمان عن عرش الخلافه . لانه اموى وقد اخذ معاوية يؤلب الرأى العام فى الشـام والحجـاز ومصر والعز حتى ظفر بمطلبه اخيرا فى سنة ٤١ هـ حيث تنـازل الحسن بن على عن حقوق بنى هـاشم فى منصب الخلافة إلى بنى أمية . واصبح الامويون هم سادة المسلمين يمدون نفوذهم من دمشق عاصمتهم الى شتى انحاء العالم الآسلامى ويتحكمون فى بنى هاشم وشيعتهم

(١) انظر تاريخ الدولة الاموية

الكثيرة العدد .

ولم يكن رأى المسلمين فى الواقع متفقا مع تلك العصبية التى أملت ارادتها على انحساء الخلافة ، ورفعت الامويين الى ذلك المنصب الرفيع . فثار العراق ، وتذمر الحجاز وتأفف المسلمون فى كل اقطار الارض من تلك الاوضاع التى اقامها ابن العاص وابن شعبة وابن سمية ، وابناء الطلقاء ، الذين حاولوا سلب المسلمين كل مظهر من مظاهر الديمقراطية الاسلامية .

ولذلك . فان عهد معاوية نفسه ، لم يسلم من روح التذمر والثورة ، رغم شرعية خلافته فى نظر جمهرة المسلمين فقد ظل الخوارج شوكة قوية فى جنب بنى امية يقضون مضاجعهم ، ويؤرقون مآقيهم .

وفى عهد يزيد تحرك اهل العراق والحجـــاز ، واشتبكوا مع الامويين فى نضال جبار انتهى بهزيمة كربلاء وتخريب الحرمين المقدسين فى مكة والمدينة بما الهب الشعور الاسلامى ضد بنى امية وخلفائهم وحفز عبد الله بن الزبير لان ينهض ويطلب الخلافة لنفسه .

وفى عصر عبد الملك وابنائه ، قامت حركة الشيعة والتوابين ، وكانت الضربات الشديدة لبنى امية فى العراق والحجاز ، ثم تبعت هذه الثورات فيما بعد خرسان ، المشرق ، حتى افلت الزمام اخيرا من مروان الحمار . فانهزم وقتل . وخلفت الكوفة دمشق فى متدان الحكم والسيادة .

كان اذن الامويين خصوم اقوياء ، ومعارضون اشداء حاولوا ان يقضوا على الامويين فى ميدان الوغى . فلم يفلحوا . فحولوا وجهتهم شطر العلم والقلم . لعل ذلك يسعفهم فى التخلص من بنى امية واستبدادهم .

ففى اوائل الدولة الاموية قام المختار الثقفى ، واتصل بابن الحنفية وجمع له انصارا من شيعة بنى هاشم ، واخذ يلقى اليهم بمبادىء الكيسانية ، واستطاع ان يجعل من تلك الفرقة الدينية نواة لحزب شديد المعارضة لبنى امية . وقد كان من

مبادىء الكيسانية ان الخلافة يجب ان تكون فى بنى على ، وان ذلك من لب الاسلام ، وان الامويين مغتصبون ، والمغتصب مرتكب لاكبر الكبائر ، وتجب مقاومته ولو بالقوة :

وكان الى جانب هؤلاء الكيسانية جمهرة المسلمين الذين امنوا بظلم الامويين ، وانحرافهم عن جادة الاسلام فى امور تعتبر ضربا من الكبائر . فكانوا بذلك يتمنون زوال هذه الدولة . ولكنهم يخشون فتنة اشد فسكتوا على مضض .

وإلى جانب هؤلاء جميعا حزب الخوارج الذين يعلنون كفر بنى امية ومن لف لفهم .

لم يكن امام بنى امية آراء هذا الجو الملىء بالاخطار والفرق المعارضة لسياستهم والتى بدأت تدعو لمبادئها على انها من الاسلام . الا ان يعملوا على انشاء فرق معارضة لخصومهم ، ومؤيدة لسياستهم . فكان ان شجعوا القدرية على الظهور وامدوا زعماءها بشتى ضروب التشجيع فأخذ دعاتها ينشرون مبادئهم فى القدر علنا وبدون اكثرات رغم معارضة ذلك لروح القرآن والسنة ورأى سلف المسلمين ولكن سيوف بنى امية كانت من ورائها . فذهبت صرخات ابن عمر ادراج الرياح ولم يؤثر انكاره على غيلان الدمشقى وصفوان الجهنى ان يعلن ابن الخليفة الثانى براءته من مقالة هؤلاء القدرية . لانها انما قيلت بفرض تأييد بلاط دمشق ومثل القدرية جماعة المرجئه . فان الاشخاص الذين اسلفنا ذكرهم ، والذين اضطلعو ابهذه الدعاية الارجائية انما شجعهم على ذلك بنوا امية . حتى لقد خرج بعض الدعاة لهذه المرجئة ، وأخذ يوهم المسلمين بأن إمامهم الاعظم على رأيهم فى عقيدة الارجاء وتأييد خلافة بنى امية

ذلك هو فى الواقع . مجمل الاسباب الحقيقية فى نشوء هذه الفرق ومبادئها . فهى أحزاب سياسية كسائر الأحزاب فى عصورنا الحديثة .

على أن التاريخ يقرر أن الامويين حاولوا محاولات شتى لتدعيم دولتهم —

عدا إنشاء تلك الفرق وتشجيعها ، فلقد أعادوا العصبيات القبلية التى قضى عليها الاسلام إلى الوجود ، وأخذوا يضربون القبائل بعضها ببعض ، بل أنهم كثيرا ما حاولوا التفريق بين الشقيقين ، كما فعل معاوية مع عقيل ابن أبى طالب فى خلافه على أخيه ، وكل ذلك فى سبيل أن يحكموا ، وأن تقدم لهم شعوب المسلمين وافرامم فروض الطاعة والولاء .

ومن المحقق أن بنى أمية لم يدعوا فرصة تمردون أن ينتهزوها لتدعيم سلطانهم فى انحاء الخلافة المضطربة ، وذلك فى نظرنا هو العامل المباشر الذى من أجله تعددت الفرق الاسلامية ، وعادى بعضها بعضاً أشبه ماتكون بالأحزاب المصرية فى بلادنا اليوم والتاريخ ، فى أغلب الظن — يعيد نفسه دائما . وأن اختلفت الأشخاص والأماكن . ولكن الحقائق غالبا ما تكون كأنها هى . فان القوامين على الدول والشعوب ، لايهدأ لهم خاطر عادة ، حتى يطمئنوا إلى طاعة رعاياهم العمياء التى لا بصر لها ولا تفكير ؛ وهذا فى عصورنا الحديثة التى يقال انها عهود العلم والنور ونظم الحكم الديمقراطى المستند على إدارة الأمة ، وجعلها مصدر السلطات .

فما بالك بعصور كان حكامها يزعمون أنهم ظل الله فى ارضه ، وأن طاعتهم من طاعته . هل يعقل أن يدعوا فرصة لناقد لسياستهم ، أو معارض لخططهم . ذلك بعد المشرقين .

وعلى أية الحال . فان الفرق الاسلامية ، التى أحدثت أراء مخالفة المعروف لدى جمهرة المسلمين ، وسلامة الأمة ، لم تفعل هذا لوجه الله والرسول ، والمصلحة العامة ، وإنما قالته نظير أجر معلوم من دار الخلافة ، وكان الباعث لها على الجهر بتلك المقالات المنكرة . هو السياسة الخرقاء التى أراد الأمويون أن يحكموا بها شعوب الخلافة الاسلامية .

ولكن هل نجحت هذه الفرق ، وظفرت بالتأييد من عامة المسلمين .

ان الناظر إلى علمـــاء السلف ، وأئمتهم يرى انهم صبوا على هؤلاء الدعاة المأجورين جام غضبهم وتجريحهم أمام الرأى العام ، ولم يدعوا إليهم فرصة لنشر تلك المبادىء الضارة بوحدة الامة ، ومصادر تشريعها ، فالمعتزلة — رغم سيطرتهم المطلقة فى عصر المأمون لم يستطيعوا أن يستقروا طويلا فى قلب الخلافة . بل إن الرمح الطويل الذى كانوا يستندون إليـه إبان مجدهم ، قد تـكسر بعـد موت المأمون ، وعاد السخط والغضب على أرائهم ومبادئهم ، وعادت كراهية المسلمين لهم بشكل أقوى مما كانت قبل عصر القوة التى اسـتندوا إليها فى عهد المأمون حتى ذهبوا مع الريح .

كذلك الحال فى أولئك القدرية والمرجئة . تلك الجماعات التى خلقها الأمويون لتدعيم سـلطانهم فانها ماكادت تنقرض دولة بنى أميـة حتى انقرضت معهـا تلك الفرق التى ارتبط انشاؤها بحبال تلك الدولة المستبدة .

وهكذا يلقى علينا التاريخ دروساً صارمة فى وجوب الاستمساك بالحق للحق والخير للخير ؛ وأن الزبدسيذهب جفاء ، وإماما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال .

ومن الامثلة الحية التى نلمسها بانفسنـا . مانشهده اليوم مـــن ذلك الصراع العنيف بين بريطـــانيا ودولة الوادى . فلقد احتلت انجلترة بلادنا ، واستطاعت أن تقضى على المقاومة الوطنية التى تزعمها الوطنى الشـاب مصطفى كامل وخلقت هذه الدولة الغاصبة ، فى وادى النيل عدة احزاب واسـتطـاعت ان تستغل بعض الوطنيين الـكبار لمصلحتها الاستعمارية ، وان تنشئ الدارس التفـاهم معها باسم المفـاوضة قبل الجلاء . وكان رأى المقـاومة الشعبية الأولى ان لا تفـــاهم ولا مفاوضة فى شىء الا بعد جلاء الانجليز وخروجهم من أوطـاننا . لأنهم معتدون على سيـادتهم لجهادهم وقتـالهم فرض عين على كل مواطن . فالتفـــاهم معهم ، والمساومة على حقوق المسلمين خيـانة كبرى ، وموادة لمن حارب الله ورسوله ،

وفرار من الزحف فى ميدان الجهاد ، والحرية الدينية والوطنية ولكن بريطانيا استطاعت أن يظفر بواسطة الفرق الأسلامية الحديثة . أو الاحزاب السياسية البرلمانية بمسالمة المجاهدين ، وكبت شعور المصريين ، وأنزال راية المسلمين فى ربوع وادى النيل .

وبالرغم من مرونة انجلترا ، وسياستها البارعة . فان المواطنين استيقظوا اخيرا ، وانبثق فى الوادى نور الحق ، فنهب اهلوه ، ودفنوا اهواءهم وتحزبهم تنادوا : يالثارات الوادى : ايها الانجليز الكلاب اخرجوا من بلادنا . ايها القراصنة . اذهبوا من اوطاننا . وسوف ينتصر الحق ، ويندحر الباطل . وأن الله لمع المؤمنين بقوة الحق ، وضعف الباطل .

« وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون »

الفهرس

